

ملخص:

عرفت مختلف العلوم الأوروبية تطورا مذهلا خلال العصر الحديث، والذي بلغ ذروته خلال القرن التاسع عشر، وهذا ما جعل الكثير من الفلاسفة ينبهون بالنجاح الباهر الذي حققته العلوم الوضعية، ويتغنون بالمستوى العلمي الكبير الذي بلغته أوروبا. إلا أنه وخلافا لهم يوجد عدد قليل من الفلاسفة، تفتنوا للجانب السلبي لهذا التطور، وفي مقدمتهم إدمون هوسرل (Edmund Husserl)، الذي اعتبر أن العلوم الأوروبية بالرغم من ازدهارها الذي لا ينكره أحد، تعيش أزمة حادة جدا، فألف كتابا في غاية الأهمية سماه أزمة العلوم الأوروبية والفنيومينولوجيا الترنسندنتالية، شخّص فيه الأزمة بعمق من جانبها العلمي، وذلك بتحليل أسبابها وتجلياتها المختلفة، دون أن يغفل عن تقديم حلول لها.

إلا أن عبقرية هوسرل ستكمن في تتبعه للأزمة إلى أصولها وأسسها الأولى، بحيث لا يكتفي بتوضيح أبعادها العلمية، بل إنه سيكشف أيضا أبعادها الفلسفية والإنسانية خصوصا، فبيّن أن أزمة العلوم الأوروبية تخفي في أعماقها أزمة الإنسانية الأوروبية، والتي سماها أزمة المعنى، أي معنى الوجود الإنساني، كما أنها أزمة الذات وأزمة الروحية الأوروبية، وأزمة القيم والأخلاق والسياسة والتاريخ، وفي الأخير هي أزمة العقل الأوروبي نفسه. ويقترح لحلها فلسفة خاصة هي الفينيومينولوجيا، باعتبارها العلاج الوحيد الناجع لهذه الأزمة العميقة والخطيرة التي تعصف

بأوروبا. وهذا الجانب بالذات من الأزمة هو ما نريد تسليط الضوء عليه في مداخلتنا هاته، وذلك من خلال طرح الإشكال التالي: ما هي أزمة العلوم الأوروبية عند هوسرل؟ ما هي أسبابها وتجلياتها؟ وما هي أبعادها الإنسانية العميقة؟ وما هي الحلول التي اقترحها هوسرل للخروج منها؟

الكلمات المفتاحية: أزمة العلوم، أزمة الضمير، المعنى، الذات، الروحية الأوروبية، العقل.

Abstract :

The nineteenth century witnessed a remarkable development of different European sciences, a fact that led philosophers to express their happiness with the high scientific standard that prevailed. However, few philosophers like Edmund Husserl's were conscious enough to notice the negative side of this development. indeed, Edmund Husserl considered that European, despite their prosperity, were experiencing a very sever crisis. His important book entitled The Crisis of European Science and Transcendental Phenomenology: An introduction to Phenomenological Philosophy, denounced the crisis from scientific side, by analyzing its various causes and manifestations, and suggesting solutions. Husserl's genius lied in following the crisis to its origins and first foundations. In fact, he was not satisfied with clarifying its scientific dimensions, he extended his analysis to reveal its philosophical and human dimensions in particular, showing that the crisis of European sciences hides in its depth the European humanitarian crisis which he named the crisis of meaning, meaning of human existence, it also the crisis of self, a crisis of European spirituality, values, morals, politics, history, and In the end it is a crisis of the European mind itself. Thus, in a attempt to solve it, the proposes a special philosophy, Phenomenology, as the only effective remedy for this deep and dangerous crisis affecting Europe. This particular aspect of the crisis is the main concern of our intervention through the imposed questions: what are Husserl's European sciences crisis? What are its causes and manifestations? What were Husserl' proposed solutions to get out of it?

Keywords: crisis of science, crisis of conscience, meaning, self, European spirituality, reason.

1. مقدمة:

¹ الدكتورة فايد سليمة أستاذة محاضرة في سقم الفلسفة بالمدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة.

يعتبر موضوع «الأزمة» موضوعاً رئيسياً في فلسفة هوسرل، وقد عبّر عنه بمصطلح دقيق وخاص به، هو «أزمة العلوم الأوروبية»، الذي اختاره عنواناً لأحد أهم كتبه («أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترانساندانتالية»). فقد رأى هوسرل أن العلوم الأوروبية تعيش أزمة حادة جداً في عصره، أي في بداية القرن العشرين، والحقيقة إن هذه الأزمة لم تقتصر على بعض العلوم دون البعض الآخر، بالعكس كانت الأزمة في نظرة شاملة حقاً، لأنها مست كل العلوم دون استثناء، سواء العلوم الطبيعية، أو الرياضيات والمنطق أو حتى العلوم الإنسانية، بل ووصلت إلى الفلسفة نفسها. وأكثر من ذلك امتدت إلى الإنسان نفسه، فأصابته بالعديد من الأزمات الخطيرة في حياته الإنسانية الخاصة، وهذه النقطة بالذات هي ما نسعى لتسليط الضوء عليه في هذه المداخلة المتواضعة، من خلال طرح الإشكال التالي: ما هي أزمة العلوم الأوروبية عند هوسرل؟ ما هي أسبابها وتجلياتها؟ وما هي أبعادها الإنسانية العميقة؟ وما هي الحلول التي اقترحها هوسرل للخروج منها؟

2. أزمة العلوم الأوروبية:

أول ما ينبغي لنا توضيحه في مداخلتنا هاته، هو تقديم التعريف الدقيق الذي وضعه هوسرل عن الأزمة، حتى نفهم حقيقتها، ولا نقع في أي لبس.

1.2. حقيقة أزمة العلوم الأوروبية في نظر هوسرل:

بادئ ذي بدء لا تعني أزمة العلوم عند هوسرل أنه يدعو إلى إنكارها والتخلي عنها، فهو لا يتشكك بحال من الأحوال في قيمة العلوم، بمعنى أنه لا ينكر علميتها. أي كونها معارف صارمة وموضوعية نابعة عن منهجية دقيقة واختبارات صارمة ومتواصلة، وذات تماسك داخلي محكم، بالعكس عندما ينظر هوسرل إلى العلوم من هذه الجهة، فإنه لا يملك إلا الاعتراف بقيمتها الكبيرة، ومن ثم الإعجاب الشديد بمنجزاتها. "لكن كيف يمكن أن نتكلم هكذا ببساطة وبكل جدية عن أزمة العلوم بكيفية عامة، أي عن أزمة للعلوم الوضعية أيضاً، بما فيها الرياضيات الخالصة والعلوم الطبيعية الدقيقة التي لا يمكن أن تكف عن الإعجاب بها كنماذج للعلمية الصارمة والناجحة". (هوسرل، 2008، الصفحة 42)

لا يتشكك هوسرل إذن في قيمة العلوم الوضعية، من حيث مناهجها ونتائجها، أي النظريات والقوانين التي تصوغها، بالعكس إنها تسجل نجاحاً كبيراً للعلوم من هذه الجهة، سواء تعلق الأمر بالفترة الحديثة أو بالفترة المعاصرة، وهذا ما يثبت أنها علوم دقيقة حقاً، حتى وإن كنا ندرك نقائصها، ونعرف أنها لم تصل بعد مستوى الكمال التام. يقول هوسرل عن الفيزياء: "إن الفيزياء كانت دائماً وستبقى علماً دقيقاً سواء أكانت ممثلة من قبل نيوتن (Newton) أو بلانك (Planck) أو أينشتاين (Einstein) أو أي كان في المستقبل. وهي ستبقى كذلك حتى وإن كان صحيحاً أنه لا ينبغي هنا أبداً أن ننتظر بلوغ شكل أخير مطلقاً لأسلوب بناء النظرية بأكملها، ولا أن نطمح إليه". (هوسرل، 2008، الصفحة 42) ويصدق ذلك بكل تأكيد على الرياضيات والمنطق أيضاً، وكل العلوم الوضعية الأخرى.

وخاصة القول إن هوسرل يعترف بعلمية العلوم الوضعية ولا يطرحها للنقاش مطلقاً، ولا يقتصر الأمر على علوم الطبيعة، بل ويشمل أيضاً علوم الروح، ما عدا علم النفس الذي لم يبلغ بعد مرتبة العلمية في نظره. "هذا الذي يعبر عنه هوسرل في كتابه العمدة «أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترانساندانتالية» دون أن يشك أبداً في دقتها الداخلية، بما أن ما حققته من نجاح نظري وتطبيقي دليل على ما تعتد به من صرامة ومن علمية رغم جملة التغيرات التي طرأت عليها.... فالمشكلة ليست على هذا المستوى من الطرح، بما أنها صحيحة وسليمة، وهو ما يصدق على مختلف العلوم الأخرى من نفس طبيعة الفيزياء: أي علوم الطبيعة كالبيوفيزياء، الطب وغيرها، إلى جانب العلوم الروحية التي لا يمكن الشك في صرامتها ودقتها أبداً، باستثناء «السيكولوجيا رغم ادعائها بأنه تقدم التفسير الأخير لعلوم الروح»". (مراد قواسمي، 2010، الصفحات 301-302)

إنّ فما هي أزمة العلوم على وجه الدقة؟ إنها أزمة الأسس (La crise des fondements)، لهذا فنحن عندما نسائل العلوم فإننا نسائلها عن أسسها فقط، وليس عن علميتها أبداً. "ستصبح هذه المسألة في مرحلة الأزمة، مسألة الرجوع إلى أسس العلوم". (Geneviève Gendreau-B, 2009, P 75) ويقصد هوسرل بذلك أن الأسس التي تقوم عليها هذه العلوم هي أسس جد هشة وجد ضعيفة. وتختلف أزمة الأسس من علم إلى آخر، ومن مجال إلى آخر. لذلك فأزمة العلوم عند هوسرل متعددة الأوجه والمظاهر. "إن ظاهرة الأزمة باعتبارها أزمة الأساس... قد طالت في الواقع جميع النشاطات والمجالات، وتجلت عبر أشكال متعددة واتخذت مضامين مختلفة". (زكريا إبراهيم، 1990، الصفحة 63) ويترتب عن ذلك أن أزمة العلوم معقدة جداً، لكننا سنحاول تبسيطها قدر المستطاع، من خلال تناولها في خطوطها العريضة.

2.2. أزمة معنى العلم:

وقد أدت أزمة الأسس هذه إلى أزمة جد خطيرة هي أزمة المعنى، والمقصود بها معنى العلم ذاته، حيث اكتسب العلم الوضعي معنى خاصاً بداية من عصر النهضة، والذي تعزز أكثر فأكثر في العصر الحديث، وهو أنه علم موضوعي (Science Objective)، حيث طغت عليه النزعة الموضوعانية (L'objectivisme)، كما يسميها هوسرل.

وتعني النزعة الموضوعانية عنده النظر إلى كل شيء في العالم كموضوع (Objet)، أي كواقعة (Fait). "أزمة العلوم هي أولاً وقبل كل شيء «أزمة المعنى»: وعند هوسرل هو المعنى المؤسس للعلوم الحديثة، والذي ضاع مع التطورات العلمية، خاصة بعد ظهور العلم الغاليلي". (Geneviève Gendreau-B, 2009, P66) وتعتبر النزعة الموضوعانية نزعة اختزالية، لأنها تختزل كل ما هو موجود إلى واقعة، فتختصر بذلك العالم بأسره إلى وقائع (Les Faits)، وإلى وقائع فقط.

ظهرت النزعة الموضوعانية في العصر الحديث، وترجع أصولها الأولى إلى غاليلي وبالضبط إلى فيزيائه الرياضية التي عملت على تريبض كل ما هو موجود في الطبيعية. "القراءة التي قام بها هوسرل لأزمة العلوم انطلاقاً من غاليلي.. الملاحظة الأولى لهوسرل هي وجود أزمة على صعيد المجتمع، والتي حصر أصلها في أزمة العلوم، فقدان معناها، إنها أزمة منهجية متعلقة بأسسها ونتائجها بالنسبة إلى الحياة". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P118)

لهذا يجعل هوسرل النزعة الموضوعية (Positivisme) للعلم مكافئة تماماً للنزعة الموضوعانية. "الوضعية مرادفة هنا بالنسبة إلى هوسرل للمذهب الموضوعاني الذي نشأ حسبه مع غاليلي وتريبض الطبيعية". (Edmund Husserl, 2019, P9)

ونتيجة سيطرة النزعة الموضوعانية، تم رد كل شيء إلى واقعة، وهذا ما أدى إلى إهمال الذات كلية، "هذا الخطر الوضعي الذي تتعرض له العلوم لديه نتيجة... العمى إزاء السلطة الذاتية نفسها. في الحقيق إن الفكرة الرئيسية لهوسرل -والتي تكون المسؤولة بالنسبة إليه عن هذه الأزمة التي تمر بها العلوم حالياً- هي فكرة إهمال العلماء لذاتيهم الخاصة التي تعمل في سيرهم، أي عيب في تأملية بحثهم. ويصدر الغموض الذي تتحرك فيه العلوم اليوم إذن، عن غياب الاهتمام الموجه إلى «لغز الذاتية» التي يعمل فيها". (Edmund Husserl, 2019, Pp8-9)

وهكذا يبين هوسرل أن أحد أهم أسباب أزمة العلوم الأوروبية هو الاهتمام المفرط بالوقائع الموضوعية، وإغفال الذات بالكامل، مع أن الذات هي الأساس وهي الأهم، لأنها هي التي تصنع هذه العلوم. فينكب العالم على دراسة الواقعة، ويغفل بالكلية التساؤل عن ذاتيته الخاصة، وعن نشاطها- دورها في بناء هذا العلم. "غير أن هوسرل يقول «إن علوماً وضعية خالصة تصنع رجالاً وضعيين خالصين»، رجالاً مولعين بالواقع، ولا يتساءلون إذن أبداً بالمقابل عن النظرة التي يحملونها عن الوقائع. «الواقعة هي واقعة»، هذه هي حقيقتها، وعندما يركزون كل التركيز على

الواقعة، بوصفها كذلك، فإنهم لا يتساءلون مطلقاً عن نمط الولوج إلى الواقعة، وعن كيفية القصد إليها. وهكذا فإن الرجل الوضعي هو الرجل الذي لا يتأمل في أفعاله المعيشة ذاتها، لديه نزوع لغض النظر عن ذاتيته، وعن المعنى المحايث لأية واقعة مهما كانت". (Edmund Husserl, 2019, P10)

لم يقتصر خطر النزعة الموضوعانية على رد كل الموجودات إلى وقائع وإهمال الذات كلية، لكنها شوّهت مفهوم الطبيعة نفسه، حيث قامت نظرة النزعة الموضوعانية على ثنائية عميقة بين الذات والموضوع، الروح والطبيعة، فالطبيعة هي موضوع خارجي مائل أمام الذات، وهو موضوع قائم بذاته ومستقل تماماً عنها، والذات هي عالم التمثلات الذهنية الذاتية المعارضة للوقائع الموضوعية، لهذا فإنها لن تبني العلم إلا إذا اقتصر على مراقبة هذه الوقائع وتسجيل ملاحظاتها عنها من الخارج بحيادية تامة، أي بموضوعية تامة. وهي نظرة خاطئة بالكلية في تصور هوسرل. وأخطر ما في الأمر هو أن الفلسفة ذاتها – وهو يقصد بطبيعة الحال الفلسفة الوضعية لعصره- قد تبنت هذه النظرة الخاطئة عن الطبيعة، فسقطت في شبك النزعة الموضوعانية. "تري الفلسفة في العالم عالم ما هو موجود، ويصبح العالم عالماً موضوعياً بالتعارض مع تمثلات العالم... تصبح الحقيقة إذن حقيقة موضوعية. وهكذا فإن الفلسفة تبدأ بوصفها علم كون (Cosmologie)". (Edmund Husserl, 2019, P71)

ترتبط الطبيعة عند هوسرل ارتباطاً وثيقاً بذات العالم – أو ذات الفيلسوف- الذي يفسرها، لأنها نتاج ذاتيته نفسها، أي أنها ترتد في النهاية إلى تمثلاته الذاتية. لهذا يفضل هوسرل ألا يسميها الطبيعة، بل يطلق عليها اسماً خاصاً هو "العالم المحيط (Le monde ambiant)" (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P92)، وهو يؤكد أن هذا المفهوم كان موجوداً عند اليونان، وهو لم يفعل سوى إحيائه من جديد وتوظيفه في فلسفته، باعتباره العالم الحي والمعيش من قبل الإنسان، حتى لو كان عالماً، وحتى أثناء ممارسته لنشاطه العلمي. "غير أن هذه الطبيعة ليست الطبيعة بمعنى علوم الطبيعة، وإنما ما كان يكافئ الطبيعة بالنسبة إلى اليونانيين القدماء، والتي كانت تقوم أمام أعينهم في عالمهم المحيط بوصفه حقيقة طبيعية. وعندما نعبر عنه على نحو أكثر كمالاً، فإن العالم المحيط التاريخي لليونان ليس هو العالم الموضوعي بالمعنى الخاص بنا، وإنما هو تمثلهم للعالم، أي تقييمهم الخاص الذاتي، المصحوب بكل الحقائق التي كانت تضاهي بالنسبة إليهم الآلهة، الشياطين... الخ". (Edmund Husserl, 2019, P54) ويعني ذلك أن العالم المحيط ليس أبداً عالماً موضوعياً، بل هو عالم ذاتي محض، "وقد أدخل هوسرل هذا المفهوم للعالم المحيط بالتقابل – بالتعارض- مع العالم الموضوعي، بوصفه يدل على تمثّل العالم، تقييمه واسترجاع ملكيته الذاتية، ويتعلق الأمر بتشكيل روعي قابل للتطور". (François Dubisson, 2019, P7)

علاوة على ذلك تنظر العلوم إلى نظرياتها وقوانينها كصروح جاهزة في الحاضر، وتهتم فقط بتطويرها أكثر فأكثر والاستفادة منها عملياً، لكنها تتجاهل تماماً البحث عن أساسها الأول، أي عن الأصل الذي نشأت منه، وهو ما يسميه هوسرل «عالم الحياة» (Le monde de la vie) "يقوم كل علم أو كل إنتاج للمعنى العلمي على عالم الحياة، أي العالم اليومي". (Geneviève Gendreau-B, 2009, P19)

عالم الحياة هو العالم السابق على العلم، ومع ذلك فهو منسي من قبل العلم في الحاضر، "الخطر في الأمر أن العلم إنما ينسيه لعالم المعيش فهو ينسى أساسه، إذ انبثقت العلوم كلها منه [عالم المعيش] بما هو الأساس الأصلي لكل ممارسة نظرية كانت أو عملية". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 338) ونسيان العلم لعالم الحياة لديه نتائج جد وخيمة عليه، فهو يؤدي إلى نسيانه لأساسه، وهذا ما يوصله في النهاية إلى الاغتراب، أي الاغتراب عن العالم الحقيقي، العالم المعيش في عالم مجرد وعقلي ورياضي. "من هنا تتجلى العلوم الحديثة، العميقة والمعقدة، فيما بين العلوم الحديثة وعالم المعيش، بحيث إن نسيان هذه العلوم لعالم المعيش أمر فادح، بل خطير لأن هذا النسيان يعني الاغتراب عن العالم الحقيقي، الأمر الذي يترتب عنه خلط وتعتيم المفاهيم التي تحدد الثقافة الأوروبية قاطبة". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 339)

3. أزمة الفلسفة الأوروبية:

إذا كان منطلق الأزمة هو مجال العلوم، فقد كان من الضروري لها أن تطال مجال الفلسفة أيضا، والأمانة تقتضي توضيح هذه المسألة بدقة؛ إن سبب أزمة العلوم هو أزمة الفلسفة ذاتها وليس العكس. لذلك فإن تتبع هوسرل للأزمة وبحثه عن أسبابها العميقة، جعله ينتقل من التجليات العلمية للأزمة، والتي كانت بادية للعيان، إلى تجلياتها الفلسفية، والتي كانت خفية على الكثير. "فالأزمة هي إذن أزمة الفلسفة ذاتها بالدرجة الأولى، وإن بدت أزمة العلوم" (يوسف بن أحمد، 2008، الصفحة 63). والسبب الذي يجعل الفلسفة تعيش هذه الأزمة الخطيرة حسب هوسرل هو: النزعة الوضعية التي اكتسحتها، وحالة الضياع التي تعرفها الفلسفة، لأنها انحرفت عن ذاتها أي عن فكرتها الأصلية التي تأسست مع اليونان، خاصة أفلاطون وأرسطو.

بحيث يمكننا القول إن الفلسفة لم تواكب تقدم العلوم الوضعية، بل إنها سارت في اتجاه معاكس له، أي أن تطور العلوم الوضعية قابله في الجانب الآخر تدهور الفلسفة. "الأزمة ليست إذن فشلا للعلوم من وجهة نظر العلماء، بالعكس تماما يبدو أن نجاح العلوم سار جنبا إلى جنب مع فشل الفلسفة. وفقا لهوسرل، نجاحات العلوم تمت على حساب استعادة معناها الأصلي". (Geneviève Gendreau-B, 2009, P75) ومرد ذلك أن العلوم الوضعية اكتسبت قوة كبيرة، جعلتها تسيطر على باقي العلوم والمعارف الأخرى، بما في ذلك الفلسفة، بحيث أصبحت الفلسفة تابعة للعلم، بدل أن يكون الوضع عكس ذلك، مثلما حصل في ذلك في العصور السابقة. "الأمر الذي يعني بوضوح أن الوضع المتأزم يحيل مباشرة إلى «فقدان الإيمان الذي يدفع تأسيس فلسفة شاملة»... تززع من خلاله الاعتقاد في مثال الفلسفة والمنهج، ما أدى انتكاسة أدت إلى فهم العلمية والحقيقة من خلال «الموضوعية» ونزعتها الميتة التي تقوم على تأويل بمعان ضيقة، مما أدى إلى قياس الفلسفة نفسها، بمقياس هذه «العلوم الوضعية التي كانت قائمة كشيء لا يمكن التناول عليه» والنظر إليها من منظورها وبالتالي الحكم عليها، وعلى صرامتها التي وضعت موضع شك، وهذا ما يعني انقلاب الآية بحيث أصبحت العلوم الوضعية هي الحكم والفلسفة لا تلتحق بركب التطور الذي يجدر تحقيقه". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 307) ويتضح بذلك أن تطور العلوم تم على حساب الفلسفة، لأن النجاح الكبير الذي حققه العلم كان ثمنه تراجع الفلسفة وانكماشها على ذاتها.

حل هوسرل أزمة الفلسفة بشكل مستفيض في كتاب **تأملات ديكارتية**، حيث بين هناك مظاهرها وأسبابها، وأهم مظاهرها هي حالة الانحطاط الكبير التي تعاني منها الفلسفة في عصره، والتي تكمن في الفوضى التي تعتمها، نتيجة الانقسام بين الفلاسفة والصراع المرير والجدال الذي لا ينتهي بينهم. "إن حالة الانقسام التي توجد فيها الفلسفة في الوقت الحاضر، والنشاط غير المنظم الذي تُبديه، يدفعنا إلى التفكير فيها. فالفلسفة الغربية هي من وجهة نظر الوحدة العلمية، ومنذ النصف الثاني من القرن الأخير، في حالة انحطاط ظاهر بالقياس إلى العصور السابقة. ولقد اختفت الوحدة في كل مكان، سواء في تحديد الهدف، أو في طرح المشكلات وفي وضع المنهج". (Edmond Husserl, 1953, P4) لم تعد هناك فلسفة واحدة، بل أصبح لدينا عدد لا يحصى من الفلسفات، بعدد الفلاسفة أنفسهم، ثم لا يوجد ما يجمعها لا في المنهج ولا في الغايات والرؤى، وأكثر من ذلك إنها تتصارع فيما بينها باستمرار، فضاعت الحقيقة الفلسفية، بل وضاعت الفلسفة نفسها وسط هذه الفرقة وهذا الصراع. لهذا لم تعد الفلسفة تؤدي دورها، وهو دور حضاري وتاريخي خطير جدا، ولا يمكن لأي علم آخر أن يقوم به مكانها.

من ناحية أخرى، ونتيجة تصاعد الروح العلمية بسبب النجاحات المتوالية للعلوم الوضعية، ظهرت النزعة الوضعية أولا في العلم، ثم انتقلت إلى الفلسفة نفسها مع أوغست كونت (Auguste Comte) مؤسس الفلسفة الوضعية، التي كانت مجرد انعكاس للتطور العلمي المذهل للقرن التاسع عشر، حيث عملت على القضاء على الفلسفة بمعناها القديم، أي على الميتافيزيقا أو الفلسفة الأولى، وبنت مفهوما جديدا للفلسفة هو الفلسفة العلمية أو الوضعية. "وعلى هذا سيؤرخ هوسرل للصيرورة الوضعية الصريحة للعلوم، ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وهو يستهدف هنا من دون شك العلماء الذين ورثوا الفلسفة الوضعية لأوغست كونت. هذا الأخير، الذي يعد مؤلف دروس **في الفلسفة الوضعية**، أسس فلسفة تحمل القطيعة مع كل ميتافيزيقا. وكان يعد بالفعل موقفا مؤسسا حصريا على التجربة ويتحرك بثقة دون حدود نحو العلم". (Edmund Husserl, 2019, Pp9-10)

ما يؤاخذ هوسرل على الفلسفة الوضعية، هو أنها أحدثت القطيعة الكاملة مع الفكرة الأصلية للفلسفة، تلك الفكرة التي نشأت مع اليونان، وبالضبط مع أفلاطون وأرسطو، وتطورت خلال العصر الوسيط، واستمرت في العصر الحديث مع ديكرت ولايبنتز وكانط وهيغل، لتصل إليه في الأخير. وهي فكرة الفلسفة بوصفها علما دقيقا أي علما كليا ومطلقا ويقينيا. "وإذا كان الشغل الشاغل لهوسرل على مدى خمسين عاما من تطوره هو بناء العلم انطلاقا من الوعي، أو على أسس ثابتة يقينية، فإن تاريخ الفلسفة كله لا يخرج، في نظر هوسرل، عن هذا الإطار كذلك. بل إنه يرى أن طموح الفلسفة هو أن تكون علما مطلب يوجهها منذ أفلاطون وأرسطو. وإذا كان هذا هو دأب الفلسفة دائما، وإذا كان مقصد هوسرل لا يختلف عن ذلك أيضا". (سليم سلامة، 2007، الصفحة 19)

لكن هوسرل يلاحظ أن فلاسفة عصره - خاصة الوضعيين - قد انصرفوا كلية عن فكرة الفلسفة بوصفها علما دقيقا، وهذا بالذات هو سبب الأزمة العميقة التي تعيشها الفلسفة العلوم على السواء في نظره. "هذه الملاحظة المتشائمة فيما يخص الخطر الذي تتعرض له الفلسفة، وهو بأن تضع بوصفها «علما دقيقا»، أي بوصفها فلسفة حقيقية". (Edmund Husserl, 2019, P16) أما هوسرل فإنه يعتقد جازما أن فكرة الفلسفة بوصفها علما دقيقا هي فكرة خالدة لا تموت أبدا، وهي تحرك تاريخ أوروبا من الداخل، ويجب العودة إليها من جديد، بل إن عصره أحوج ما يكون إليها. "رغم أن فكرة الفلسفة التي عرفت ميلادها في اليونان القديمة لم تتحقق بالفعل إلا أنها لا تزال تحيا في الثقافة والتاريخ الأوروبيين. وهذا ما يبرر لجوء الإنسانية الأوروبية، في حال أرادت تجديد ذاتها والتحكم في مصيرها في عصر النهضة، إلى فكرتها المؤسسة، فكرة الفلسفة والعلم كمعرفة حقة يتم الاعتماد عليها لتشكيل كل مجالات الحياة". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 313)

4. الأبعاد الإنسانية لأزمة العلوم الأوروبية:

بعد أن تطرقنا إلى الأبعاد العلمية والأبعاد الفلسفية للأزمة الأوروبية، نصل الآن إلى أبعادها الإنسانية، وهذه النقطة بالذات هي الموضوع الرئيسي لمداخلتنا.

معروف عن هوسرل أنه فيلسوف عميق جدا، لذلك لم يكن من الممكن له أن يتوقف عند التجليات العلمية والفلسفية للأزمة، بل كان لابد له أن يتوغل أكثر في التحليل لكي ينفذ إلى أصولها الأولى، وقد وجدها فيما سماه أزمة الإنسانية الأوروبية (La Crise de l'humanité européenne)، وهو عنوان لمحاضرة مهمة جدا، ألقاها في فيينا سنة 1935. وقد اعتبر الأزمة الإنسانية بمثابة مرض أصاب أوروبا بأكملها. "الأمم الأوروبية مريضة، ويقال إن أوروبا نفسها في أزمة". (Edmund Husserl, 2019, P52) وتتجلى أزمة الإنسانية الأوروبية في عدة مستويات نذكر أبرزها هنا باختصار.

1.4. أزمة معنى الإنسانية:

قلنا سابقا إن أزمة العلوم الأوروبية هي في حقيقتها أزمة المعنى، وقد تحدثنا عندها عن أزمة معنى العلوم ذاتها، لكنه توجد إلى جانبها أزمة أخرى للمعنى، هي أزمة معنى الإنسانية ذاتها، "إن ظاهرة الأزمة باعتبارها أزمة الأساس والمعنى قد طالت في الواقع جميع النشاطات والمجالات، وتجلت عبر أشكال متعددة واتخذت مضامين مختلفة، بحيث بات من المحتوم على الفيلسوف أن يعيد تأصيل الفلسفة، وذلك بأن يبحث لها عن أساس البديهي والمطلق. فالأزمة هي إذن أزمة الفلسفة ذاتها بالدرجة الأولى، وإن بدت أزمة العلوم وأزمة الثقافة وأزمة الحياة وأزمة الإنسانية وأزمة المعنى". (يوسف بن أحمد، 2008، الصفحة 63).

تكمن أزمة معنى الإنسانية في أن معنى الوجود الإنساني قد ضاع من الإنسانية الأوروبية هو أيضا، بحيث تم تعديم ماهية الإنسان نفسه. "فكل ذلك لن يكون كافيا ومجديا حتى يقدر الفيلسوف على تخليص الفلسفة من الأزمة الجوهرية التي كانت أصابت أسسها وانتابت ماهية الإنسان وعدمت معنى الوجود وطمست حقيقة التجربة الأصلية لعالم الحياة اليومية خلف غشاء العدد والرمز الرياضيات باعتبارها نموذج الدقة العقلانية". (يوسف بن أحمد، 2008، الصفحة

(64) وقد ضيّعت الإنسانية الأوروبية معنى وجودها بسبب طغيان العلوم الوضعية ونزعتها الموضوعانية عليها في عصر الحداثة، والتي بلغت ذروتها في عصر هوسرل.

ظهرت أزمة معنى الوجود الإنساني عندما أصبح الإنسان ينظر إلى ذاته بنفس النظرة التي ينظر بها إلى الطبيعة، أي بالنظرة العلمية الموضوعية، فاعتبر نفسه موضوعا أي واقعة من وقائع الطبيعة. ويظهر ذلك بكل وضوح في علم النفس التجريبي الذي كان سائدا آنذاك. والحقيقة إن علم النفس التجريبي، وبالرغم من أنه يدعي أنه علم إنساني، إلا أنه كان علما طبيعيا في جوهره، فهو يدرس الظواهر النفسية والذهنية بوصفها وقائع طبيعية، ويؤكد أنها تخضع لقوانين موضوعية قابلة للاكتشاف عن طريق التجريب والقياس الرياضي.

والسبب المباشر لهذا الانحراف هو تطبيق علم النفس للمنهج التجريبي الذي أخذه من العلوم الطبيعية، فطموحه لأن يكون علما حقيقيا دفعه لأن يتخذ علوم الطبيعة كمثال علمي أعلى له، فاستعار منهجها لكي يبلغ درجة علميتها، ووقع في خطأ فادح عندها، لأنه حوّل الظاهرة النفسية إلى ظاهرة طبيعية، وهو نفس الخطأ الذي وقعت فيه باقي العلوم الإنسانية الأخرى، التي تبنت المنهج التجريبي فحوّلت الظاهرة الإنسانية إلى ظاهرة طبيعية. "إذا رجعنا قليلا إلى الوراء، إلى القرن التاسع عشر، وفي ألمانيا بالتحديد حيث كان هوسرل يزاول دراساته الجامعية، فإننا سرعنا ما نلاحظ أن الحياة الفكرية كانت تمر بمرحلة حاسمة من تاريخها تميزت خاصة بالانتصارات العظيمة التي حققتها العلوم الوضعية والرياضيات من خلال نتائجها الرائعة في المجال التكنولوجي، إلى درجة أن العلوم الإنسانية نفسها حاولت الاقتداء بمنهجها طمعا في الدقة والخصبة، وعلى الخصوص علم النفس الذي حاول وسعى حثيثا إلى تبني المنهج التجريبي، وإحداث ثورة كبيرة في ميدان مفاهيمه ومبادئه أملا في استخلاص قوانين علمية في مجاله". (نادية بونفكة، 2005، الصفحة 40) لهذا فبدل أن تساعد العلوم الإنسانية الناشئة الأوروبية للخروج من أزمتها العميقة، فإنها أغرقتها فيها أكثر فأكثر.

وهذا ما يبهر لنا الجهد والوقت الكبيرين الذين كرسهما هوسرل لنقد علم النفس التجريبي، لأنه يعزو إليه مسؤولية كبيرة في أزمة الإنسانية الأوروبية في عصره، وربما يكون لجوؤه لتحليل أزمة العلوم الطبيعية، هو تفتنه إلى أنها أساس أزمة العلوم الإنسانية، خاصة علم النفس. "بالنسبة إلى هوسرل العدو الذي يجب القضاء عليه يتخذ في البداية صورة علم النفس الطبيعي، لأن هذا الأخير يزعم أنه يكفي لتفسير ما هو الوعي. هذا الانحراف أدى بهوسرل إلى تحليل الفكر الموضوعاني والطبيعي للفيزياء وللعلوم الحديثة عموما، والذي يوجد في الأساس التألمي لكل علم نفس". (Geneviève Gendreau-B, 2009, P69)

والنتيجة الحتمية لكل ما سبق أن سيطرة الروح الوضعية والموضوعانية على كل العلوم قد أدت إلى إقصاء المشكلات الأساسية من العلم، وهي الأسئلة المتعلقة بالوجود الإنساني، وهي تتعلق أساسا بمعنى أو لا معنى الوجود الإنساني، والتي يقصدها العلماء منذ البداية، باعتبارها مشكلات غير علمية، ومن ثم خارج نطاق مجال بحثهم. "سوف ننطلق من الانقلاب الذي حصل مع نهاية القرن الماضي في التقييم العام للعلوم. إنه لا يتعلق بعلميتها، بل بالدلالة التي كانت تتخذها، بالدلالة التي كان العلم عموما يتخذها والتي يمكن أن يتخذها بالنسبة للوجود البشري.... العلم... يقصي مبدئيا الأسئلة بالذات التي تعتبر الأسئلة الملحة بالنسبة للإنسان المعرض في أزمتنا المشؤومة لتحولات مصيرية: الأسئلة المتعلقة بمعنى هذا الوجود البشري بأكمله أو لا معناه". (هوسرل، 2008، الصفحة 44)

2.4. أزمة الروح الأوروبية:

بما أن الأزمة الأوروبية قد وصلت إلى الإنسان، فمن المؤكد أنها ستطال الروح كذلك، وهو ما يثبتته هوسرل، حيث يرى أن جوهر الأزمة هو فقدان الروح الأوروبية أو بالأحرى القضاء عليها، بسبب التصاعد الخطير للنزعة العلمية الوضعية، التي لم يعد فيها أي مكان للروح، بعد أن أصبح كل شيء وجودا جسمانيا ماديا. "مادام علماء الروح معيّنين بالمذهب الطبيعي (Le Naturalisme) (حتى عندما يحاربونه لفظيا)، فإنهم أهملوا بالكامل أن ي طرحوا على الأقل مشكلة العلم الخالص والكلي للروح، والتساؤل حول فكرة مذهب ماهيات الروح بوصفها روحا،

والذي يهتم بالعمومية المطلقة للروحانية، التي يُبحث عنها وفق مبادئ وقوانين. والهدف هو أن نحصل بذلك على تفسيرات علمية بمعنى نهائي على الإطلاق". (Edmund Husserl, 2019, P55)

ولا يجب علينا أن ننخدع بوجود علوم تدعي أنها علوم للروح، لأن هذه العلوم وقعت أيضا ضحية للنزعة الموضوعانية، فهي تنظر للظواهر الروحية نظرة علمية، أي باعتبارها وقائع موضوعية. "وبعد ذلك مباشرة لم تعد علوم الروح إلا علوم وقائع لا تنتج إلا أناسا ذوي عقول وأرواح شبيهة بالوقائع. وقد كان من الطبيعي لهذا العلم أن يكون عاجزا تماما عن قول أي شيء يخص الإنسان بوصفه روحا، وذلك بعد أن استبعد كل الأسئلة الأساسية المتصلة بمعنى الوجود الإنسانية. ومعنى ذلك أن العلوم كلها إنسانية أم غير إنسانية استحالت إلى علم للأجسام، بعد أن انفصلت عن كل ما هو ذاتي أو ذاتية. ولقد مضى العلماء إلى القول: إن تلك النظم التي تحاول دراسة الإنسان -من حيث هو وجود روحي- لن تصبح علوما إلا بعد أن يتم استبعاد كل جانب فيها بالإضافة إلى كل المسائل المتصلة بالعقل، فالحقيقة العلمية واحدة لا يختلف العلم الطبيعي في ذلك عن العلم الإنساني. ولذلك فقد تساءل هسرل قائلا: هل بوسعنا الزعم بأن للعالم والوجود الإنساني فيه أي معنى حقيقي إذا كان هذا هو المقياس الوحيد للحقيقة الموضوعية؟" (سليم سلامة، 2007، الصفحة 188) لهذا فإن علوم الروح لا تختلف في شيء عن علوم الطبيعية، لأنها تعتبر الروح وجودا موضوعيا وقائعا.

لهذا فإن أوروبا تفتقر حسب هوسرل إلى علم روح حقيقي، أي علم يدرس الروح من حيث هي روح، ولكن من دون أن يفصلها عن الطبيعة، لأنها مرتبطة بها بشدة. "في الحقيقة وهذه هي قناعتي، سنرى بأن المصدر الأساسي لهذا المرض يكمن هنا، يعني في عمى العلماء المحدثين أمام إمكانية تأسيس علم عام وخالص متماسك للروح. (بل وأيضا علم لا يضاف إلى علم الطبيعة، وإنما يكون تابعا له)". (Edmund Husserl, 2019, P54)

وقد ضاعت الروح الأوروبية على مستويين، على مستوى الفرد أولا، والذي ضيّع ذاته واغترب عنها، ثم على مستوى المجتمع ككل، والذي ضيّع وجوده الجماعي المشترك، ويظهر ذلك في انعدام الوحدة الروحية العميقة التي توحد كل الأوروبيين. لأنه لما كانت رؤية الإنسان إلى نفسه تقوم على النزعة الموضوعانية التي استعارها من علوم الطبيعية، فإنه يعتبر نفسه واقعة فظة، ومن ثم ستنمق كل الروابط التي تجمع بين الناس، ونحن نقصد الروابط الحقيقية والقوية، أي الروابط الإنسانية أو الروحية. لأنه لما ضاع معنى الوجود الإنساني، ضاعت معه كل القيم السامية. "الفلسفة... موجهة نحو الطبيعة الجسمانية، مادام كل ما هو معطى معطى مكانيا- زمانيا ولديه في كل مرة، على الأقل في ركنه الأساسي، صورة وجود الجسمانية. الناس والحيوانات ليسوا مجرد أجسام، ولكننا إذا وجهنا نظرنا نحو العالم المحيط، ستبدو بأنها جسمانية، ومن ثم كوقائع مندرجة في المكانية- الزمانية الكلية. وهكذا فإن كل الحوادث النفسانية الخاصة بكل أنا، مثل التجربة، التفكير، الإرادة، ستكون لديها موضوعية معينة. الحياة الجماعية، حياة الأسرة، حياة الأمم، الخ، تبدو عندئذ أنها ستتحل إلى حياة الأفراد المعزولين، بوصفهم موضوعات فيزيائية - نفسية. وستكون الرابطة الروحية ومن خلال العلية الفيزيائية - النفسية، محرومة من الاستمرارية الروحية الخالصة، وستندخل الطبيعة الفيزيائية في كل مكان". (Edmund Husserl, 2019, P71)

لهذا يستنتج هوسرل أن علوم الروح في عصره غير قادرة على دراسة الروح حقيقة. "يخبرنا هوسرل أن علوم عصره لا تعرف كيف تعالج الروح؛ لأنها «معمية جميعا بالمذهب الطبيعي»". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P111) فيؤكد هوسرل بذلك أن علوم الروح عاجزة تماما مثل علوم الطبيعة على مساعدة الإنسان على حل مشكلاته الإنسانية والروحية، لأنها هي بالذات التي تُفرغ وجوده من كل بعد إنساني أو روحي، وذلك من خلال اختزالها له إلى واقعة موضوعية. "ف «العلم الذي يدرس الأجسام الخالصة ليس له ما يقوله عما هو ذاتي»، بما أن عملية العلم الوضعي تقتض مجرد الاكتفاء بالعمل على مراقبة الواقعة وتسجيلها، سواء كانت وقائعه متعلقة بالعالم الفيزيائي أو الروحي، بل على العكس من ذلك، فالعلم الذي لا يقوم بمثل هذا الإجراء لا يعد علما أو يُنتقص من قيمته العلمية، الأمر الذي يجعل العلوم الحديثة قاصرة عن مساعدة الإنسان في إعطاء معنى لوجوده وفعله وتوجيه حياته

الفكرية والعلمية، ومن هنا لا يمكن الإنكار بأن هذا النمط من العلم يفقر، بل يُعَدُّ الأفق الروحي والتاريخي على حد سواء". (مراد قواسمي، 2010، الصفحات 306-307)

وهذا ما يبرر لنا النقد الشديد الذي وجهه هوسرل لعلوم الروح الموجودة في عصره، "ينوع هوسرل في عباراته لكي يقوض من هيمنة العلوم الموضوعانية على الروح الأوروبية". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P87) وسعى بالمقابل إلى بناء علوم روح جديدة تكون روحية بالفعل والحقيقة. وقادرة على إخراج الروح الأوروبية من أزمتها الخطيرة.

3.4. أزمة الضمير:

يتتبع هوسرل الأزمة الأوروبية إلى أعماق أعماقها، ويبين هذه المرة أنها أزمة للضمير الأوروبي، "في الأخير خلال السنوات الأخيرة، وبينما أصبحت أزمة العلوم الأوروبية هاته -تلك-، والتي عاش فيها طوال حياته، أصبحت أزمة ضمير، فقد طرح هوسرل مشكلات التاريخ، وعالم الأشخاص والثقافة، بعبارات تاريخانية الوعي، وعندها انكب على تحليل عالم الحياة، وهو أفق هذا الوعي". (Daniel Christoff, 1966, P7)

حيث ضاع الضمير الأوروبي هو الآخر وسط غمرة الحياة الموضوعية التي فرضها تطور العلوم الوضعية في العصر الحديث، وقد بلغت قمته في القرن التاسع عشر. "إذا كان القرن التاسع عشر هو عصر انتصار العلوم الطبيعية، منهجها وتطبيقا وأثرا... فإنه يمكن أن يُقال: إن القرن العشرين هو بداية أزمة العلوم الإنسانية، بل وبدء أزمة الضمير الأوروبي نفسه، إذ كان بمثابة مرآة عكست انتصارات القرن السابق وصورتها بوصفها عقبات وخيمة تهدد كيان العلم، وتندّر الحضارة الأوروبية بالخطر، حتى لقد تنبأ البعض لها بالفناء من أمثال نيتشه وانتهائه إلى العدمية، وشبنجلر وتأكيد لانهايار الغرب. ولكن المحاولة العلمية الجادة في هذا الموضوع هي تلك المحاولة التي قام بها ادموند هوسرل في آخر حياته (1859-1938) كأخر صيحة له بعد أن أسس الفينومينولوجيا، واطمأن إلى أنه عثر في النهاية على هذا العلم الشامل الذي طالما راود الفلاسفة الأوروبيين، والذي جعلته الحضارة الأوروبية مطلبا وغاية، هذه المحاولة التي سطرها في كتابه الضخم «أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية»". (زكريا إبراهيم، 1990، الصفحة 247)

ترتبط أزمة الضمير الأوروبي بشكل مباشر بحياة الأوروبيين في الواقع، وهي تظهر في أزمة قيم حادة يعاني منها الأوروبيون، سواء كأفراد أو كشعوب. ويرفض هوسرل بشدة أن يفصل أزمة العلوم عن أزمة الضمير والقيم، لأنه كشف أن بينها وحدة عميقة، تتم عن أزمة واحدة ووحيدة تعصف بأوروبا، لكنها تتجلى في مظاهر عدة، لأنها تشمل كل المجالات. "أزمة العلوم التي يصفها هوسرل تعبر في العمق عن أزمة القيم التي تمزق أوروبا، في سنوات الثلاثينات. بدلا من أن يفصل أزمة العلوم عن الأزمة الأخلاقية- السياسية، يصف هوسرل فينومينولوجيا الأزمة التي تعيشها أوروبا في وحدتها، والأزمة حسبه واحدة، والرجوع التألمي إلى حالة العلوم، هو وحده الذي يمكنه أن يسمح بتوضيح معنى الأزمة التي تجلت حتى في المستوى السياسي". (Edmund Husserl, 2019, P7)

ولما كانت أزمة أوروبا هي أزمة قيم، فهي إذن أزمة أخلاقية، ولكن سياسية أيضا، وهذا جانب من أخطر جوانبها. "من المؤكد أن أزمة المعنى تظهر حقا في أزمة القيم، وهي أزمة أخلاقية- سياسية، والتي لم يكن هوسرل بأي حال من الأحوال غير مكترث بها". (Edmund Husserl, 2019, P9)

طمست النزعة الموضوعانية نظرة الإنسان إلى نفسه، بل ونظرته إلى الآخرين أيضا، فمثلما تعتبر النفس البشرية طبيعة واقعية، تعتبر الجماعة الإنسانية كذلك. وهذا ما يهدم العلاقات الإنسانية العميقة داخل المجتمع، ويصنع منهم أفرادا معزولين، وغير مهتمين بطموحات هموم، أحزان وآلام بعضهم بعض، وأكثر من ذلك أفرادا أنانيين ومتصارعين فيما بينهم بلا هوادة ولا رحمة، وإلى ما لانهاية له. وهذا ما ينتهي بالأزمة الأوروبية إلى أن تصبح

أزمة أخلاقية وسياسية عميقة جدا تعصف بأوروبا وتهدد بوحدتها، بل وبوجودها نفسه. "فالأزمة فعلا تشكل تهديدا لمصير أوروبا قاطبة ولا بد لها من خلاص". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 359)

ترتب عن أزمة العلوم إذن أزمة قيم، ظهرت كل مخاطرها في المجالين الأخلاقي السياسي، وأكبر دليل على ذلك الحرب العالمية الأولى، التي عايشها هوسرل وكان أحد ضحاياها، حيث خسر بسببها منصبه كأستاذ جامعي، والذي اضطر للتنازل عنه بسبب مضايقات النازيين له. فالأزمة الروحية مزقت الروابط القوية التي تجمع بين الأوربيين، وجعلتهم يكونون العداء الشديد لبعضهم بعض، عداء بلغ مستوى الحرب الشاملة.

وأكد أن هوسرل كفيلسوف إنساني وصادق ومحب لوطنه ولقارته، قد استاء كثيرا من الوضع المأساوي الذي وصلت إليه أوروبا، وعزم على تحليله، قصد البحث عن علاج له، وقد وجد أن سببه العميق هو ضياع الوحدة الأوروبية بسبب أزمتها الروحية الحادة، والتي كانت نتيجة حتمية لأزمة العلوم الوضعية، لأنه لا انفصال بين الأزمتين، بل هما وجهان لعملة واحدة، لأن هوسرل يحرص على إثبات وحدة هذين الوجهين للأزمة الأوروبية. "يربط هوسرل هنا إذن بطريقة حتمية بين أزمة العلوم الأوروبية، من حيث إنها تُختزل إلى بعدها الوضعي وأزمة قيم الإنسانية، الأزمة «الحقيقية» لا يمكن الهروب منها بحال من الأحوال، لحساب أزمة يُزعم أنها أزمة حقيقية للعلوم. لا يوجد من هذا المنظور أي تعارض بين أزمة العلوم وأزمة القيم، التي يبذل هوسرل جهودا لبيان وحدتها من الناحية الفينومينولوجية". (Edmund Husserl, 2019, P11)

4.4. أزمة العقل والعقلانية:

بعد تحليلاته المعمقة، التي استغرقت سنوات طويلة، وصل هوسرل إلى أن الأزمة هي في حقيقتها أزمة العقل الأوروبي، "من المؤكد أن أزمة المعنى تظهر حقا في أزمة القيم... لكن مهمته كفينومينولوجي تكمن في الذهاب دون كلل بالأزمة الأخلاقية إلى أزمة أكثر جذرية، وهي أزمة العقل ذاته. بهذا المعنى، لا تصلح الأخلاق لكي تكون فلسفة أولى. وبما أن الفينومينولوجي وفِي لمطلبه المنهجي، فإنه يتحرك وبالأحرى من ذلك بعقله، وهو ملكة نقدية ومتسائلة. لذلك فإن أزمة المعنى هي في العمق أزمة العقل". (Edmund Husserl, 2019, P15)

والعقلانية التي يقصدها هي العقلانية الحديثة التي يصفها بأنها ضالة، بما في ذلك العقلانية الألمانية نفسها. "أنا أيضا متأكد أن الأزمة الأوروبية تجد جذورها في عقلانية ضالة... (والمثالية الألمانية بهذا الصدد سبقتنا منذ زمن طويل) أن صورة تطور العقل، بوصفه عقلانية مرحلة التنوير، ومهما كانت معقولة، فإنها ضلال هي أيضا". (Edmund Husserl, 2019, P68)

ليست أزمة العقل إذن إلا أزمة العقلانية الأوروبية، وهي العقلانية التي تأسست في العصر الحديث ابتداء من ديكارت. "تعتبر أزمة العقلانية الأوروبية أزمة عرضية بالرغم من أنها مصيرية، وذلك لأنها لا تمتد إلى العقلانية في جوهرها، وإنما إلى العقلانية الحديثة، وهي بذلك حالة انحطاط للعقلانية، فجوهر العقلانية لا تمسه الأزمة وكل ما حدث أن عقلانية أوروبا الحديثة قد أضحت تعيش الاغتراب الذي تسبب فيه انغماسها في الرؤى الطبيعية والموضوعية، وعلى هذا فالأزمة قد أمسك بأنيابها عقل في حقبة تاريخية محدودة فقط، إنه العقل الغربي الذي يبحث عن النجاح والمنفعة، إذ أنتج جملة من النسبيات الخطيرة من مثل النزعة النفسانية، الطبيعية والعلمية والتاريخية بحيث ترفض كلها الطابع الترانساندانتالي للعقل كما تنتحي عن البحث في الأنا المحض بما هو الأساس الوحيد لإقامة علم تنفس حقيقي". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 304)

لا يرفض هوسرل العقلانية الأوروبية في جوهرها، بالعكس إنه يؤمن بها ويدعو إليها، لكنها عقلانية جديدة سيسعى إلى تأسيسها بنفسه. أما العقلانية التي يرفضها فهي العقلانية الحديثة، التي تأسست مع ديكارت وانتشرت بسرعة في الفلسفة الحديثة من بعده. والسبب في ذلك أنها كانت مجرد انعكاس للتطور العلمي الحاصل في الفيزياء والرياضيات، لذلك فهي عقلانية رياضية أو بالأحرى فيزيائية. "لهذا الغرض يجب أن نعود إلى العبقري المدشن للفلسفة الحديثة بأكملها: إلى ديكارت. بعد وقت قصير من تدشين علم الطبيعة الجديد على يد غاليله كان ديكارت هو من ابتكر الفكرة الجديدة للفلسفة الشاملة ووضعها على طريق التحقيق النسقي: وذلك بمعنى العقلانية الرياضية، أو بتعبير أفضل العقلانية الفيزيائية النزعة - الفلسفة «كرياضيات شاملة». وقد عرفت في الحال تأثيرا هائلا". (هوسرل، 2008، الصفحة 137)

اتخذت العقلانية الحديثة العلوم الوضعية كنموذج لها، فانحدرت منها، ولهذا فإنها تضمنت كل مفاهيم ونزعات العلوم الحديثة، فتجسدت في المذهب الموضوعاني والمذهب الوضعي خصوصا، الذين ظهروا في الفلسفة مثلما ظهروا في العلم، وهذا ما يعتبره هوسرل إخفاقا ذريعا للعقلانية الأوروبية الحديثة. "يمكن عندئذ أن تفسر الأزمة بأنها الفشل الظاهري للعقلانية. والسبب في إخفاق الثقافة العقلانية يكمن إذن مثلما قلنا ذلك، في ماهية العقلانية ذاتها، أي في غرقها في المذهب «الطبيعي» و«المذهب الموضوعي»". (Edmund Husserl, 2019, Pp79- 80)

يمكننا القول إن العقل الحديث هو العقل العلمي، وكذلك العقلانية الحديثة هي عقلانية علمية أو موضوعانية (Rationalisme objectiviste)، والتي تنحدر من ديكارت، وتمتد على طول العصر الحديث، لهذا يرى "هوسرل في ديكارت مؤسس الفكرة الحديثة للعقلانية الموضوعانية". (André- A. Devaux, 1954, Pp 263- 266) وقد بلغت هذه العقلانية ذروتها مع الفلسفة الوضعية التي انتصرت للعلم بالكلية، وعادت كل ما هو ميتافيزيقي، وقد أدى ذلك إلى ظهور رد فعل عنيف من قبل أولئك الذين رفضوا هذه الوضعية المأسوية للعقل الأوروبي، بحيث ثاروا على العقل نفسه ورفضوه، وفضلوا الذهاب إلى جانب اللاعقل وهو ما نجده عند الحركات الرومانسية التي تعتمد على العاطفة والغريزة مع روسو، شوبنهاور، وعند الحركات الصوفية للاهوتيين المعاصرين.

لكن الثورة ضد العقل ظهرت أكثر في النزعة الشككية (Scepticisme)، التي بدأت مع ديفيد هيوم وتطورت كثيرا بعده، حتى اكتسحت مجال الفلسفة والعلم معا، بحيث أصبح الفلاسفة والعلماء معا يتشككون في إمكانية بلوغ الحقيقة المطلقة، ومن ثم انتشرت النزعة النسبية والاحتمالية بقوة، ولذلك فالشككية هي أكبر تهديد لفكرة الفلسفة الأصلية. "هذه هي أزمة الفلسفة في الوقت الحاضر، أزمة الربوبية، وهي في نفس الوقت أزمة العلوم الجزئية التي فقدت كل دلالة بالنسبة للإنسان حيث تم تأسيس الإنسانية الأوروبية انطلاقا من روح الفلسفة والعلم، فإن أزمة الفلسفة والعلم هي في نفس الوقت أزمة الإنسانية الأوروبية بأكملها و«مرض» العلم والفلسفة يعني «مرض» الثقافة الأوروبية، والعجز عن تحقيق الفكرة الأصلية للفلسفة، هو في نفس الوقت عجز أوروبا عن أن توجد وتحيا حسب الفكرة المؤسسة لها". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 34)

وبناء على كل ما سبق تميز القرن التاسع عشر بفقدانه للثقة في العقل، خاصة فكرة العقل المطلق والكلي التي قال بها الفلاسفة القدماء، وأحياها هيغل في فلسفته. "ولهذا كان «انهيار الإيمان في عقل «مطلق»". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 306)

وهنا بالذات يضع هوسرل يده على السبب الأول للأزمة الخطيرة التي تعيشها أوروبا، وهو أزمة العقل والعقلانية. حيث يبين هوسرل في نهاية تحليله للأزمة أن انعدام الإيمان بالعقل المطلق هو بالضبط الذي أدى إلى أزمة العلوم الأوروبية وأزمة الإنسانية، لأن العالم يستمد معناه من هذا العقل المطلق، مثلما يستمد الوجود الإنسان معناه منه هو أيضا. "ولهذا كان «انهيار الإيمان في عقل «مطلق» يستمد منه العالم معناه»، هو الذي أدى إلى «انهيار الإيمان في معنى التاريخ، معنى الإنسانية، وحريتها من حيث هي مقدرة الإنسان على أن يعطي معنى عقليا لوجوده الإنساني،

الفردى والعام» فقدان الإنسان للإيمان في العقل يعني فقدان الإيمان في «الإنسان» نفسه". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 306)

يمكننا القول إن العقل كان يسير في الاتجاه الصحيح في العصر اليوناني والعصر الوسيط، لكنه انحرف عنه في العصر الحديث بسبب تطور العلم وطغيانه عليه، فأصبحت العقلانية ضالة ومنحرفة، أو ساذجة حسب تعبير هوسرل، فأغرقت أوروبا في أزمة حادة. "هذا هو المكان الذي يجب أن نفصح فيه سذاجة العقلانية، التي اعتبرت بأنها العقلانية الفلسفية بلا قيد ولا شرط، لكنها تُميز بالتأكيد فلسفة الحداثة بأكملها منذ عصر النهضة، وتعتبر نفسها بأنها العقلانية الحقيقية، أي كلية. كل العلوم التي تطورت حتى الآن، منذ بداياتها مع العصر القديم، مارست هذه السذاجة التي لا مفر منها في البداية. أعم لفظ للدلالة على هذه السذاجة هو بوجه خاص المذهب الموضوعاني". (Edmund Husserl, 2019, P70)، وهذا ما يقتضي ضرورة إصلاح العقلانية الأوروبية.

5.4. أزمة التاريخ:

يؤكد هوسرل أن أحد أهم تجليات أزمة الإنسانية الأوروبية هي "أزمة التاريخ" (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 363)، وهو آخر جانب ندرسه من جوانب الأزمة الأوروبية. تكمن أزمة التاريخ في أزمة المعنى، إذ فقد هو أيضا معناه، ويقصد بطبيعة الحال تاريخ أوروبا، وقد حصل ذلك بسبب حدوث انقطاع في حركة التاريخ الأوروبي خلال الفترة الحديثة، ذلك أن تاريخ أوروبا كان يسير منذ اليونان والرومان -أي في العصر القديم والوسيط- في الاتجاه الصحيح، لكنه انحرف عن مساره مع مجيء القرن السابع عشر. ويجب علينا إعادته إلى مساره الصحيح من خلال الرجوع إلى الفكرة الأساسية التي تحركه. "تبدو الأزمة في حال عدم مواصلة التاريخ لمعناه وتوقفه عند العنصر الحديث، الأمر الذي لا يسمح له ببلوغ معنى الزمان المحايث للبنية القصدية والغائية، وبالتالي عدم تحقق معنى الاستكمال والتاريخية بعامه". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة؟ 308) وقد انحرف التاريخ عن مساره الصحيح عندما ضيَّع غايته الحقيقية، لهذا فالأزمة هي أزمة غاية أيضا، أي غاية الإنسانية، التي لا يمكن تحقيقها إلا عبر التاريخ، لأنها غاية التاريخ نفسه. وهذه غاية عند هوسرل هي العقل والعقلانية الحقيقية، والتي بواسطتها سنصل إلى مثال الإنسانية الحقيقية نظرا للارتباط الوطيد بينهما. "لأن التأمل الهوسرلي حول التاريخ يوضح الغائية التي توجد في أصل مشروع العلمية، وهو مثال العقل الذي يقدمه هوسرل بوصفه مثال الإنسانية من حيث هي كذلك". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P10)

وننتج عن أزمة التاريخ الأزمات السياسية والأخلاقية العميقة لأوروبا، والتي أدت إلى انشقاق وتمزق الأوروبيين، وإلى صراعاتهم التي وصلت حد الحروب الشاملة، مثلما حصل مع الحرب العالمية الأولى، التي عاصرها هوسرل وتكبد هو شخصا ويلاتا وعلى عدة أصعدة. "أثرت.. الحرب على حياة هوسرل، في المستوى الشخصي، المستوى الأكاديمي و المستوى الفلسفي". (Julien Farges, 2015, P46)

وننتجت أزمة التاريخ عن المفهوم الجديد للدولة القومية الذي تشكل مطلع العصر الحديث، وقد أدى هذا المفهوم إلى تقسيم أوروبا إلى مجموعة من الدول القومية أي الأمم الوطنية، وتعتقد كل أمة أوروبية بأنها منفصلة ومستقلة تماما عن الأمم الأوروبية الأخرى، وقد تتفاخر بوطنيتها الخاصة، إلى الدرجة التي ترفع نفسها فوقها جميعا، تعتبر نفسها الأمة العليا بينها -وهو ما ظهر بشكل واضح مع الأمة الألمانية- خاصة مع تضارب المصالح الاقتصادية والاستراتيجية بينها، حتى تغدو هذه الأمم عدوة لبعضها بعض، كما يتجلى ذلك مثلا في العداوة التقليدية بين الأمة الفرنسية والأمة الألمانية.

ويمكننا أن نقول باختصار إن الحدود الجغرافية الحديثة للأمم الأوروبية، قد صورت لكثير من الأوروبيين بأنهم أمم منفصلة عن بعضها بعض، وأنه يجب على كل أمة منها أن تهتم بشؤونها الخاصة وبمصيرها الخاص فقط، وأن تعمل من أجل تحقيق مصالحها الخاصة، ولو على حساب الأمم الأخرى، بل ولو وصل الحد بها إلى الحرب والتقاتل

فيما بينها، لهذا فالروح الوطنية أصبحت قاتلة لأوروبا. "إن تجربة الحرب تضع -الروح- الوطنية في أزمة في نظر هوسرل: ... كانت الحرب وويلاتها نتيجة هذه الوطنية القاتلة". (Julien Farges, 2015, P52)

لهذا فالأزمة السياسية عميقة جدا، وهي ناتجة عن أزمة التاريخ، حيث تتصور كل أمة أن لديها وجودا خاصا بها ومستقلا عن وجود الأمم الأخرى، وهذا خطأ كبير. لأن ما يجمع الأوروبيين أكثر مما يفرقهم، وما يجمعهم هو قرابة قوية أو علاقة أخوية، يفضل هوسرل أن يسميها الوحدة الأوروبية ويقصد بها الوحدة الروحية بينهم. "مهما حاولت الأمم الأوروبية أن تبقى عدائية بالفعل اتجاه بعضها بعض، إلا أنها تملك مع ذلك قرابة حميمة ومميزة بين الأرواح التي تعبرهم من جانب إلى آخر، بعد أن يتم تجاوز مختلف الأمم. إنها مثل الصلة الأخوية التي تمنحنا في هذه الدائرة الوعي بالانتماء إلى الوطن". (Edmund Husserl, 2019, Pp56- 57) لأن أوروبا ككل هي الوطن الكبير الذي يجمع كل الأوروبيين ويوحدهم. لكن المشكلة تبقى في إثبات هذه الوحدة الأوروبية وإقناع الأوروبيين بها، لتحقيقها على أرض الواقع فعلا، وهذا ما سيكرس له هوسرل الجزء الأخير من حياته.

5. الحلول التي قدمها هوسرل لتجاوز الأزمة الأوروبية:

لم يكتف هوسرل بتشخيص الأزمة الأوروبية في كل تفاصيلها وأبعادها، وتتبع تجلياتها وأسبابها العميقة حتى أصولها الأولى، لكنه حرص أيضا على تقديم علاج شاف لها، وهو ما سنتطرق له الآن.

1.5. ضرورة بناء الفلسفة بوصفها علما دقيقا:

أولا وقبل كل شيء أكد أن علاج الأزمة لن يأتي مطلقا من العلوم نفسها، وإنما من الفلسفة بالضرورة. "ويترتب عن ذلك أنه يتحتم على الفلسفة أن تقوم بمهمة توضيح وحل أزمة العلوم". (Jules Bednaski, 1957, P433)

فالأزمة كما قلنا ذلك وإن كانت أزمة علوم في الظاهر، إلا أنها أزمة الفلسفة في أعماقها، ذلك أن الفلسفة لم تعد تؤدي الدور المنوط بها، لأنها انحرقت عن فكرتها الأصلية، لهذا فأول طريق الحل هو إحياء المعنى القديم للفلسفة، ذلك الذي نجده عند الفلاسفة اليونان، خاصة أفلاطون وأرسطو، أي الفلسفة بوصفها علما دقيقا. "إنني أستعيد فكرة الفلسفة الأصلية على أكبر نحو، تلك التي منذ التعبير الأول المنسجم عنها، والذي قدمه أفلاطون، أصبحت أساسا لفلسفتنا ولعلمنا الأوروبيين، وتبقى بالنسبة إليهما علامة عن مهمة غير فانية. وتبعا لهذه الفكرة تعني «الفلسفة» بالنسبة إلي أنا «العلم الكلي» وبالمعنى الجذري للكلمة أي «العلم الدقيق»". هوسرل. (Husserl, 1957, P372)

ويجب ربط جميع العلوم بهذه الفلسفة الأصلية، بحيث ستكون مهمة الفلسفة إعادة تأسيس جميع العلوم على أسس جديدة. "يمنح هوسرل، منذ سنة 1911 وفي الكتيب الذي يحمل عنوان الفلسفة بوصفها علما دقيقا، يمنح للفلسفة هذا المعنى، وهذه المهمة الأخيرة، من أجل إعادة التأسيس الجذري للعلوم في حد ذاتها. وهو لا يهتم إذن بالموضوعات الخاصة بكل علم، وإنما بالمعنى الذي يكتسبه مفهوم العلمية في حد ذاته، مثلما تقتضيه الفلسفة على نحو جذري". (Edmund Husserl, 2019, P16)

ويظهر لنا بذلك أن هوسرل أسس كل فلسفته على الذات المفكرة، وهذا كرد فعل قوي من جهته على الفلسفات الوضعية لعصره التي كانت تقوم على الموضوع، بسبب تأثرها بالعلوم الطبيعية. "لقد كان الأمر يتطلب إذن الرجوع إلى الذات المفكرة التي أراد المذهب الوضعي طمسها وتجاهلها، ولقد اعتبرت الكانطية المحدثه في ألمانيا، في تلك الفترة، أكثر المحاولات جدارة بحل هذه المشكلة، لأنها تفصل فصلا قاطعا بين الذات الخالصة والذات السيكلوجية، وبهذا يكون إنقاذ موضوعية المعرفة ممكنا، غير أن ما كان يتطلبه القرن هو بالأحرى فلسفة تعيد الاعتبار للذات العينية (Concret) في حياتها المباشرة والتزامها التاريخي". (نادية بونفقة، 2005، الصفحة 41).

وعندما تعود الفلسفة إلى فكرتها الأصلية، عندها فقط ستقوم بوظيفتها الحقيقية والخطيرة، وهي تقديم الأسس لجميع العلوم دون استثناء، بداية بالعلوم الرياضية ثم الطبيعية، وأخيرا العلوم الإنسانية والاجتماعية، وهي الأسس المتينة حقا، لهذا فكل علم جزئي يملك موضوعا خاصا يدرسه، أما الفلسفة فإنها تتميز بأنها لا تملك موضوعا خاصا، لأنها علم كلي، ويكمن دورها في تقديم الأسس لمختلف العلوم، ومن ثم فهي علم تأسيسي حقا. "الفلسفة على نحو جذري تبني... نفسها كمصدر أصلي تأسيس لكل علم جزئي- معطى، والذي لا يكون إلا تابعا لها. يقدم كل علم في نظر الفلسفة بالفعل ميدانا أو «منطقة» مما هو موجود، موضوعه هو إذن «منطقة»، بينما لا تملك الفلسفة موضوعا بهذا المعنى، لكنها وبالأحرى من ذلك، تؤدي بالحقيقة دور الأساس العام لكل العلوم". (Edmund Husserl, 2019, P16)

والحقيقة إن هوسرل يحصر أسس العلوم كلها في أساس واحد ووحيد، والذي يعتبره أساسا قويا، يقينيا، بديهيا، وقطعا ومطلقا، يسميه نقطة البدء الجذري، وهو «الأنا أفكر» أو الوعي، فيلنقي هوسرل هنا تماما مع ديكرت في ضرورة بناء الفلسفة على الكوجيتو، لأن الكوجيتو هو الحقيقة الأولى المطلقة التي ترجع إليها كل الحقائق الأخرى. "نقطة الاتفاق الأساسية بين ديكرت وهوسرل هي في الإقرار المضمحل عند ديكرت، والصريح عند هوسرل، بأنه يجب تأصيل الفلسفة، أي الوصول إلى الأساس الأول الذي يمكن أن تُبنى عليه فلسفة لا تقبل النزاع... بالرجوع الجذري إلى الأنا أفكر الخالص من جهة، ومن جهة ثانية وسيلة إعادة إحياء بعد ذلك القيم الخالدة التي تنبثق منها". (André- A. Devaux, 1954, Pp 263- 264)

حتى وإن كان هوسرل يضع حل الأزمة الحادة التي تعيشها أوروبا في الفلسفة، إلا أنه لا يقصد أية فلسفة كانت، بل فلسفته هو أي الفينومينولوجيا تحديدا، لأنها الفلسفة الوحيدة الصحيحة والأصيلة. "إن العمل الذي يقوم به هوسرل عبر صفحات كتاب «أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترانساندانتالية» الذي صدر عام 1936 ببلغراد ونشر في صورته الكاملة عام 1954، يتميز باقتراح الفينومينولوجيا كونها الفلسفة الوحيدة التي بإمكانها أن تتفقد أوروبا من حال أزمة المعنى التي تسببت فيها العلوم الحديثة والنزعة الموضوعية (Objectivisme) التي لها صلة وطيدة بها، إذ يبين من خلاله العلاقة الوطيدة ما بين الفينومينولوجيا بما هي فلسفة تقوم والمشكلات التي يواجهها العلم الراهن". (قواسمي، 300) (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 300)

وواضح بذلك أن هوسرل الثائر بشدة على النزعة الموضوعانية، قد اتخذ موقفا مناقضا لها تماما، لأنه لم يبني الفلسفة على الموضوع، وإنما على الذات المفكرة، أو كما يفضل أن يسميها «الذات المتعالية»، فاعتبر الفينومينولوجيا علم الذاتية المتعالية. "ستعرض الفينومينولوجيا في تأملات ديكرتية كعلم للذاتية المتعالية". (Alfred Weber et Denis Huisman, 1957, Pp 335- 336).

2.5. ضرورة الرجوع إلى عالم الحياة:

يؤكد هوسرل أنه لا يمكننا حل أزمة العلوم من دون طرح سؤال أساس العلم أي أصله، "أزمة العلوم لا تتعلق بالعلوم في ذاتها، في مناهجها وفي مشروعيتها تخصصاتها ومجالاتها الخاصة. الأزمة أخطر بكثير، لأنها لا تتعلق بالعلوم في ذاتها لكنها تتصل ب «أساس المعنى» في أصل العلوم... أي عالم الحياة وكما". (Geneviève Gendreau-B, 2009, P66)

أصل كل العلوم حسب هوسرل هو عالم الحياة، وهو العالم السابق للعلم، أي أنه الأرضية الأولى التي نبتت فيها جميع العلوم. "يقود علاج هذه الأزمة في البداية إلى التعمق فيما يكمن الموقف العلمي، من أجل الكشف عن الأرضية الأولى التي يمكن أن تتأسس فيها هذه الأنساق، وهذه الأرضية الأولى لكل افتراض مسبق هي عالم- الحياة". (Alexy Lamy-Théberge, 2011, P118) والفلسفة هي وحدها التي تقدر على رفع الستار عن عالم الحياة بوصفه أرضية العلوم. "وخلال هذا الرفع للستار سيبرز مفهوم عالم- الحياة، وهو في نفس الوقت أرضية

والتيمة (Thématique) الخاصة للعلوم. يقدم عالم- الحياة رؤية فينومينولوجية عن الأرضية غير مكتشفة". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P7)

حتى وإن كان عالم الحياة أساس كل العلوم، إلا العلوم تتجاهله تماما، فهو عالم منسي حقا من قبلها، وهذا النسيان هو أحد أهم أسباب الأزمة. ولا يعود إلا للفلسفة أن تكشفه وترجع إليه، ولا يكون ذلك إلا في الفينومينولوجيا بطبيعتها الحال. "ولهذا يجب أن يخضع علم الطبيعة لتحليل فينومينولوجي هدفه تناول العالم المنسي والتذكير به، أي ضرورة العودة إلى تاريخ ما قبل الأزمة نفسها، «فعالم المعيش كان موجودا دائما قبل العلم»". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 363)

يرى هوسرل أن العلوم الأوروبية دخلت في هذه الأزمة الخطيرة، لأنها قطعت صلتها بالحياة، واعتبرت نفسها صروحا نظرية مجردة تتعالى عن الواقع، وكأنها نتاج العقل المجرد فقط، بينما العكس هو الصحيح، لأن عالم الحياة هو الأرضية الأولى والخصبة التي نبتت فيها كل العلوم، التي كانت في بداياتها الأولى معارف ساذجة وغير منهجية ولا منظمة، وذات طابع عملي وطابع نفعي بحت، ثم انتقلت بالتدريج وعبر قرون طويلة إلى معارف منهجية منظمة ونظرية مجردة، وذلك بفضل الأمثلة (Idéalisation)، فالأمثلة تعبر عن التطورات التاريخية للعلوم، وهي التي أضفت عليها طابعها العلمي الخالص. لكن الاقتصار على النظر إلى حاضر العلوم فقط، وقطع كل صلاته بماضيه هو الذي يخلق هذه الأزمة الحادة التي تعاني منها اليوم، لأنه يضيف عليها طابعا مجردا، ويجعلها غريبة عن حياة الإنسان، ويفقدنا بذلك معناها الحقيقي. "لكي يتم استيعاب مقصد كتاب «الأزمة» ومدى المعنى الذي يحمله لابد من التخلص كلية مما يتضمنه تصور العلم من حيث دلالاته، بما هو صرح قائم بذاته، مستقل عن غيره من حقول الحياة الإنسانية، لأن هذا هو السبب الأول والأخير للأزمة نفسها من حيث هي رؤية فينومينولوجية، فالفينومينولوجيا ليس بإمكانها البتة أن تنظر إلى العلم في انفصاله عن الحياة، أو دلالاته على الأقل، إذ لا وجود لأزمة سوى بالنسبة «لفقدان العلم دلالاته بالنسبة للحياة» من حيث كانت السائد في هذا العصر قائما على «رد فكرة العلم إلى علم وقائع». (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 302)

ونسيان عالم الحياة هو الذي أوقعها في الاعتراب، لأنه وانطلاقا من "القراءة الهوسرلية لتاريخ العلم انطلاقا من غاليلي. يجب علينا أن نصل إلى فهم مختلف المراحل التي قادت العلوم والإنسانية إلى الاعتراب الذي لاحظته سنة 1935. ويجب على هذا الجزء أيضا أن يبين في وقت أول الصلة الموجودة بين الممارسة العلمية والحياة عموما". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P9)

نشأت كل العلوم حسب هوسرل من عالم الحياة، أي من اهتمامات الإنسان في حياته اليومية، وهذا صادق حتى بالنسبة إلى العلوم الأكثر تجريدا كالعلوم الرياضية. يقول هوسرل في ذلك: "نشأت الهندسة من مسح الأراضي، وعلم الحساب من العمليات الحسابية، والميكانيكا الرياضية من الميكانيكا اليومية". (Edmund Husserl, 2019, P72)

تسببت النزعة الموضوعانية في أزمة حادة للعلوم، هي أزمة فقدان المعنى، والتي نتجت عن قطع كل صلة بين العلم وذاتية الإنسان وحياته، وهي الصلة التي ينبغي أن نحياها من جديد -لأنها كانت موجودة في العصر القديم والوسيط، وانعدمت في العصر الحديث فقط- لكي نخرج العلوم من أزمتها، وما يقصده هوسرل من كل ذلك هو أن العلم مرتبط ارتباطا قويا جدا بالإنسان، فهو من إنتاجه، لأنه هو الذي يبنيه انطلاقا من ذاتيته وحياته اليومية، لهذا يكون العلم في أساسه ذا طابع إنساني عميق، لأنه وُجد من قبل الإنسان ومن أجل خدمة الإنسان، ولا يمكنه أن يستقل عنه بحال من الأحوال، وإلا فلن تعود له أية قيمة عندئذ، وهذا بالضبط ما حصل ابتداء من العصر الحديث، أولا مع العلوم الرياضية، ثم العلوم الفيزيائية. "بالعكس تشكلت هندسة القرن السابع عشر كعلم أكثر تجريدا بكثير، إنها تريد إحداث القطيعة مع المرجع المحسوس. وعندما تسمى نفسها «هندسة تحليلية»، فإنها تتبنى اللغة المجردة للجبر. وعليه فإن الطبيعة التي تمت أمثلتها بعبارات جبرية، أصبحت بأسرها كثرة رياضية. بعد أن قطعت صلاتها بالواقع الحسي، تبلورت هذه الهندسة المجبرة الجديدة كمجال صوري مستقل، لديه قواعده وإجراءاته الخاصة. تريبض

الطبيعة هو ما جعلها «موضوعا» مجردا تسيره قوانين كلية، ومقاطع الصلة بالمتنوع الحسي والفردى. ومن هنا نشأ ما يسمى اليوم «الفيزياء الرياضية». «الطبيعة» (الفيزيس (Physis) باللغة اليونانية) تلقت عندئذ اسم الفيزيقا. مع تريبض الطبيعة، أي مع بداية الفيزياء ك مجال علمي نشأ أيضا ضرب من روح مترکز على موضوعه، أي على الطبيعة الفيزيائية، ومن ثم أعمى عن ذاته بوصفه ذاتا". (Edmund Husserl, 2019, P9)

ويؤكد هوسرل بذلك أنه يجب تأسيس علم جديد هو علم هو عالم الحياة أو العالم المعيش، "وهو ما يبيّن القيمة العلمية للفلسفة بما هي فينومينولوجيا تقوم على تنشيط المعنى الأصلي لها، الفلسفة، بل وجديرة بتأسيس علم يختص بعالم المعيش، ما يختلف عما تريده العلوم الوضعية، في علاقته بذات ترانساندنتالية ذات مهمة واضحة في بحث التكوينات التاريخية للمعرفة العلمية من جذورها اليومية تربط المعيش بمختلف الأفاق ومن ثمة بما كان مهملا من قبل العلوم الوضعية من جانب روحي للإنسان، وعليه تفتح الفلسفة الترانساندنتالية بابها على مصراعيه في وجه الإنسان والبعد الروحي، أي من خلال التساؤل علميا عن سؤالات المعنى والغاية التي هي من صميم الفلسفة بما هي علم صارم بالمعنى الأدق". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 354)

علم عالم الحياة عند هوسرل ليس أنتروبولوجيا، بل هو علم فلسفي خالص يسميه أنطولوجيا عالم الحياة. "أنطولوجيا عالم الحياة: ينوي هوسرل أن يجعل عالم الحياة الذاتي والنسبي، مثلما كونا مفهومه، موضوع علم جديد، ليس فقط لتوضيح أساس العلوم الموضوعية، وإنما من أجل استخراج معنى وجود وحقيقة العالم عموما". (Vincent Gérard, 1999, P26)

علم عالم الحياة مجرد امتداد لعلم الذاتية المتعالية –أي للفنومينولوجيا-، وهو علم الذات المتعالية في حياتها العينية ونشاطها اليومي، فيربط الذات بالحياة من جهة، لأن الحياة بمعناها الحقيقية هي حياة الذات، وبممارستها لمختلف نشاطاتها في الواقع من جهة ثانية، بما في ذلك نشاطاتها العلمية، وعندما نفعّل ذلك سنربط بين العلم والحياة، وهذا "من أجل جعل عالم- الحياة جسرا بين العلم والفلسفة". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P118)، بحيث سنربط أيضا بين العلم والفلسفة، فنعيد بذلك الروابط القوية بينهما، ونُخرج العلوم من أزمتها.

3.5. ضرورة بناء عقلانية جديدة:

بالرغم من أن هوسرل اكتشف أن السبب الرئيسي لأزمة أوروبا هي أزمة العقل الأوروبي ومن ثم العقلانية الأوروبية، إلا أنه لا يرفض العقلانية على الإطلاق، بل شكلا من أشكالها وهو العقلانية الحديثة، التي هي عقلانية علمية موضوعانية في صميمها. ويدعو بالمقابل إلى ضرورة بناء عقلانية جديدة، هي "العقلانية الفلسفية" (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P18)، وهي على وجه الدقة **العقلانية الذاتية** (Rationalisme subjectiviste) أو المتعالية، لأنها تنطلق من الكوجيتو، وتبني كل الحقائق انطلاقا منه، سواء أكانت علمية أم فلسفية، لذلك فهو يقابل للمذهب العلمي الموضوعاني مذهباً فلسفياً ذاتانياً. "المقابلة بين المذهب الموضوعاني العلمي والمذهب الذاتي الفينومينولوجي". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P9)

وتكون العقلانية حقيقية وأصيلة عندما تُبنى على الذات أولاً، وثانياً عندما ترتبط بعالم الحياة، الذي يعتبر الأرضية الأولى لكل علم ولكل فلسفة. وهذا حتى تتفادى العقلانية الجديدة الاغتراب الذي عاشته العقلانية الحديثة، وهو اغتراب عن الواقع بسبب انفصالها عن عالم الحياة. "العرض الذي قدمناه الآن، ليس إصلاحاً لعصرنا، بل هو بالأحرى إصلاحاً للعقلانية، العقلانية الضيقة، أي مذهب تعقلي يضع في نظرية غريبة عن الحياة، مصحوب بنتائج سيئة بالضرورة". (Edmund Husserl, 2019, P67)

وهنا ستكون العقلانية الجديدة في علاقة وطيدة مع عالم الحياة، بحيث تكون عقلانية عملية، بمعنى أن غايتها هي أن تتحقق في الواقع الإنساني، وهذا ما يُسمى "مشروع الفلسفة العقلانية وتحقيقها الفعلي". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P19) والتحقق الفعلي للعقلانية في الواقع هو الذي سيخرج أوروبا من أزمتها، لأنه سيجعل

الحياة تسير وفق معايير عقلانية، بحيث يكون العقل مرشدا للحياة الإنسانية. "يؤكد هوسرل أن المثال القديم يتم البحث عنه من أجل الصورة «الفلسفية» للوجود التي يُعطي من قيمتها، أي كون الإنسان يمنح ذاته وطوال حياته قاعدة مستخلصة من العقل الخالص". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P16) وبفضل خضوع الحياة الإنسانية للعقل فإنها سترتفع إلى أعلى مستويات العقلانية والإنسانية. "فهوسرل يرى أن الفلسفة إمكانية... تحقيق أقصى درجات الحقيقة والعقل بحيث يقوم هذا النوع في العقل، قبل أن يظهر النشاط النظري نفسه إلى جانب الاهتمامات العلمية والفلسفية". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 311)

لهذا يعتبر هوسرل العقلانية الجديدة عقلانية واقعية، فهي صراع دائم للعقل من أجل فهم ذاته أولا، ثم من أجل فهم العالم من حوله بعد ذلك. "إنه صراع مستمر للعقل «اليقظ» المتطلع إلى أن يرجع إلى ذاته، وإلى أن يصل إلى فهم ذاته، وإلى أن يحقق العقل الذي لا يفهم ذاته فقط على نحو واقعي، وإنما العالم الموجود بشكل موثوق، أي العالم الموجود في حقيقته الكلية والكاملة. وتظهر الفلسفة إذن كبحث عن العقلانية التي تجري إلى ما لا نهاية له". (André-A. Devaux, 1954, P 265)

والعقل عند هوسرل كما بالنسبة إلى كانط وإلى الكثير من الفلاسفة، هو عقل نظري وعقل عملي في ذات الوقت، وإذا كان العقل النظري يصل إلى أقصى درجات الحقيقة، فإن العقل العملي سيصل إلى أقصى درجات الحرية، على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجتمع أيضا. والحقيقة إن هوسرل لا يفصل بين تطور العقل وتطور الحرية، لأن التطور الأول يؤدي إلى الثاني بالضرورة، لأن الحرية الحقيقية هي العيش طبقا للعقل. "معنى الإنسانية، في حريتها، من حيث هي قدرة الإنسان على منح معنى عقلي لوجوده الإنساني الفردي والعالم". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 309) لذلك فإن العقلانية الجديدة ستحقق تطورا مزدوجا للإنسان، تطور علومه وفلسفته وتطور حريته وحياته.

لما كان هوسرل يعود إلى الفكرة الأصلية للفلسفة، فإنه يتصورها فلسفة أولى أو ميتافيزيقا، وهذا ما يجعله في تعارض حاد مع معاصريه الوضعيين الذي أبدوا عدا لا حدود إزاء الميتافيزيقا، ودعوا لتهديمها كلية باسم العلم، بسبب أنها معرفة وهمية زائفة. أما هوسرل فإنه يحي الميتافيزيقا من جديد لأنها هي العلم الوحيد الذي يمس الجانب الإنساني والروحي في الإنسان، ذلك أن الأسئلة الحاسمة للإنسانية أي أسئلة المعنى والوجود والغاية.. هي أسئلة ميتافيزيقية في نهاية المطاف. "إن الأزمة التي تعرفها أوربا هي؛ حسب هوسرل، أزمة معنى العلم والإنسان وتوجهها طغيان النزعة الموضوعانية وتصورها الضيق للعلم، الذي يستثني من اهتماماته كل الأسئلة التي تتعلق بالإنسان في وجوده الحميمي، والتي تنتمي إلى الفلسفة بالمعنى الدقيق، أي الفلسفة الأولى أو الميتافيزيقا، الأمر الذي يتعارض مع العلم بما هو مركب يضم كل العلوم الجزئية التي تتناول في مجموعها كل قطاعات الموجود، وتدعي استغناءها عن الفلسفة". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 317) وعندما تستعيد الفلسفة فكرتها الأصلية، فإنها ستصبح أساس كل العلوم، بحيث تصبح جميع العلوم الجزئية تشعبات لها. "ينبغي للعلوم الوضعية أن تظهر بوصفها فروعاً للفلسفة من حيث هي واحدة ووحيدة [الفلسفة]". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 353) مثلما كان الحال في الماضي.

لكنه يجب علينا أن نوضح أن هوسرل لا يقصد بالعقل أبدا عقلا فرديا، أي عقل أي فيلسوف –أو حتى أي عالم- كان، بل يقصد عقلا كليا يشترك فيه جميع الناس، فالعقل الواحد هو الذي يثبت الحقيقة الواحدة. "هذه العبارات تكشف بالدرجة الأولى عن حرص الفيلسوف على البرهنة على ثبات الحقيقة في مقابل عرضية التجربة وقدرة العقل على إدراك هذه الحقيقة- وما اعترافنا بهذه القدرة إلا تعبير عن الثقة بأن العقل واحد وثابت في مقابل صيرورة الواقع". (سليم سلامة، 2007، الصفحات 289-299)

العقل الذي يتحدث عنه هوسرل واحد، كلي ومطلق أيضا، أي أنه يتجاوز العقول الجزئية للأفراد، لأنه مشترك بينهم جميعا، وهو المنبع الأول الذي يستمد منه كل عقل فردي حقائقه. وأكثر من ذلك، هو عقل مطلق يستمد منه العالم بأسره معناه. "العقل المطلق، الذي يستمد منه العالم معناه". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 309) لهذا فالعقلانية

الحقيقية ليست محدودة عند هوسرل، بل شاملة، أي أنها لا تقتصر على الإنسان فقط، وإنما هي عقلانية كل العالم أيضاً، بل وعقلانية التاريخ بأكمله بالضرورة.

4.5. ضرورة بناء فلسفة تاريخ جديدة:

يرى هوسرل أنه لا يمكننا حل الأزمة الأوروبية، خاصة الأزمة الإنسانية والروحية، حلاً حقيقياً وجذرياً، بالاقتران على الحاضر فقط، بل يجب الرجوع إلى التاريخ، وذلك من خلال بناء فلسفة تاريخ جديدة، وهي المهمة التي نذر لها نفسه في آخر حياته. "خلال السنوات الأخيرة، وبينما أصبحت أزمة العلوم الأوروبية هاته، والتي عاش فيها طوال حياته، أصبحت أزمة ضمير، فقد طرح هوسرل مشكلات التاريخ، وعالم الأشخاص والثقافة، بعبارة تاريخانية الواعي، وعندها انكب على تحليل عالم الحياة". (Daniel Christoff, 1966, P7).

يكن دور فلسفة التاريخ الجديدة في إثبات وحدة الإنسانية الأوروبية، وهي وحدة روحية عميقة جداً ووثيقة جداً، وهي تنتج من التاريخ الواحد الذي يجمع كل الأوروبيين في كل عصر وبلد. لهذا فتاريخ أوروبا هو تاريخ روحي في الأساس. "نتناول موضوع أوروبا الروحية، بوصفه مشكلة تتعلق بعلوم الروح على نحو خالص، أي أولاً وقبل كل شيء بتاريخ الروح". (Edmund Husserl, 2019, P55).

ويلخص هوسرل هذا التاريخ الروحي في فكرة واحدة هي فكرة أوروبا، وهو لا يقصد المعنى الجغرافي أبداً، وإنما المعنى الروحي فحسب. وقد ولدت أوروبا الروحية في بلاد اليونان في القرن السابع قبل الميلاد، "يضع هوسرل نشأة أوروبا الروحية في الأمة الإغريقية القديمة في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P89) لهذا فجميع الأمم الأوروبية مرتبطة بقوة فيما بينها، لأن أصولها واحدة ومصيرها واحد.

ويظهر بذلك أن هوسرل يربط نشأة أوروبا الروحية مع نشأة الفلسفة، نظراً للعلاقة الوثيقة بينهما. "أينما كيف أن ظهور الفلسفة يتطابق حسب هوسرل مع صياغة فكرة أوروبا". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P119)

ويطابق هوسرل بذلك بين التاريخ وتاريخ الفلسفة، وهي الفكرة التي أخذها بكل تأكيد من هيغل. "فالتاريخ، بالنسبة له، هو دائماً تاريخ الفلسفة، كما لو أنه نفس الحال بالنسبة لهيغل". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 362) لهذا فالأساس الأول الذي تقوم عليه أوروبا الروحية هو العقل المطلق الذي نشأت منه، فهو أساسها والقانون الذي يحكمها، والغاية التي تنشأ تحقيقها، وهو عقل لا ينته، بمعنى أن تطوره لا يعرف حدوداً أبداً، فيختلف بذلك مع هيغل الذي تأثر به تأثراً بالغاً مع ذلك، ليقترن بالمقابل من كانط. "فالتاريخ، بالنسبة له، هو دائماً تاريخ الفلسفة، كما لو أنه نفس الحال بالنسبة لهيغل، ولكن بلا نهاية... وهذا لأن المقاربة التي يتقدم بها هوسرل، في الواقع، أكثر كانتية من كونها هيغلية". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 362)

يشترك الأوروبيون في تاريخ واحد، وهو ليس التاريخ الموضوعي الواقعي، بل هو تاريخ روحي، عقلائي، مثالي، أي فلسفي محض، وهو يثبت أن أوروبا تقوم على أساس واحد وغاية واحدة، فيبين بذلك أن ما يجمع الأوروبيين روابط قوية ووطيدة وعميقة جداً، وهذا ما يجب أن يدفعهم للاتحاد والتعاون فيما بينهم، بدل الفرقة والصراع، لأن مصيرهم واحد مهما فعلوا، أي غاية وجودهم الإنساني، وتبعاً لذلك يجب أن تكون مصالحهم، طموحاتهم وألامهم واحدة أيضاً. "ما أسسوه [اليونان] تحت اسم أوروبا، [هو] وحدة حياة، نشاط، خلق روحي، مع كل الأهداف والمصالح، الاهتمامات والألام، مع التشكيلات الغائية، المؤسسات، التنظيمات، في وحدة صورة روحية". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P89) وهذه الفكرة عن أوروبا خالدة لا تموت، وهي التي يجب إحيائها وتحقيقها في القرن العشرين لإخراج أوروبا من أزمتها الروحية العميقة.

تدل فكرة أوروبا إذن على جماعة إنسانية مميزة جداً، هي جماعة عقلانية وروحية موحدة فيما بينها إلى أقصى الحدود، وهو يقصد بكل تأكيد جماعة الفلاسفة "تملك الفلسفة تاريخياتها الخاصة، التي يتناولها هوسرل في أحد

وأخر مؤلفاته، وهو مقدمة محررة بعد كتاب الأزمات، سنة 1937. ويطور فيها الفكرة القائلة إن الفلسفة تخلق، بالنسبة إلى الفيلسوف، حاضرا حيا، والذي يجتمع فيه فلاسفة التقليد ويتفاعلون. لكن الأمر يتعلق وعلى نحو الدقة ب «وحدة تكوينية روحية»، متميزة عن التقليدية، من حيث إن الأولى أصبحت ممكنة مع الثانية، وهي تنتج تشكيل جماعة فائقة- للزمانية. وهذه الجماعة هي التي تصوغ وتمنح معنى للتاريخ من خلال التحدث مع بعضهم في حاضر حي. وهذا ما يسمح لهوسرل بملاحظة «غائية تطور الأفكار»، لأن هذه الجماعة تتأسس في صلة فلسفية- تاريخية، أي وعي خاص للترابط مع الأجيال السابقة". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P112)

وتكون مهمة جماعة الفلاسفة هي النضال مع بعضها بعض من أجل تحقيق أكبر درجة من العقل والحرية، وذلك في سيرورة لا نهائية، ومن أجل الإنسانية جمعاء. "المفهوم الهوسرلي عن أوروبا، والجانب الإشكالي الذي يحتفظ به: إنسانية كلية، تاريخية، إرادة الحرية ومتطلبه، حياة تاريخية، عقل، مهام لا نهائية". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P92)

ومثلما تتجاوز جماعة الفلاسفة نطاق الفردية، و نطاق الزمان، تتجاوز أيضا نطاق المكان، أي أنها تسير في أفق لا متناه من التطور، وتتجاوز كل الحدود الجغرافية للدول القومية، فهي جماعة فائقة- للوطنية. لكن الوحدة العقلية والروحية التي تخلقها جماعة الفلاسفة فيما بينها، سوف تمتد بالضرورة إلى المجتمع الأوروبي بأسره، لأن الفلاسفة موظفو الإنسانية أي زعمائها الروحانيون. "إذا كان الفلاسفة «موظفو الإنسانية»، فذلك لأن يمكنهم القيام بهذه المهمة بإحياء الأصول، التي تُحجب باستمرار عن طريق التاريخانية". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P115)

وعلى هذا النحو استطاع هوسرل أن يبين أن وحدة أوروبا ليست عرضية، ولا سطحية ولا قائمة على مصالح مؤقتة وعابرة- سياسية، اقتصادية، عسكرية... بل هي وحدة روحية عميقة جدا تتجاوز الأمم والحدود الجغرافية المصطنعة، كما تتجاوز الأفراد والأمم نفسها، فمثلما يجب أن تزول الانقسامات والصراعات على مستوى الأفراد داخل المجتمع الواحد، يجب أيضا- وبالأحرى- أن تزول الانقسامات والصراعات بين المجتمعات الأوروبية، فتتحد في أوروبا واحدة من أجل تقدمها جميعا مع بعض، فلا تتقدم أمة من دون الباقي ولا على حسابها، لأنه يجب على الأوروبيين أن يفهموا مصيرهم المشترك.

وفي هذه الجماعة الأوروبية الروحية سيتحقق مثال الإنسانية الجديد الذي بشر به هوسرل، والذي يتجاوز الأزمة كلية. "نحن نطرح مشكلة ما هي خصائص الصورة الروحية لأوروبا. لا نفهم أوروبا على نحو جغرافي، وليس كرسم للخرائط (Cartographique). كما لو كانت دائرة الناس الذين يعيشون هنا مع بعض على أرض واحدة يجب أن يتم حصرها بوصفها إنسانية أوروبية. بالمعنى الروحي الدومينيبي الإنجليز (Les Dominions anglais)، الولايات المتحدة، الخ... هما وبكل وضوح جزءان من أوروبا. يتعلق الأمر بوحدة الحياة، والفعل، والخلق الروحية، مع كل الأهداف، الهموم والآلام، مع التشكيلات في صيغتها النهائية، مع المؤسسات والمنظمات. الناس الفرادي يفعلون في أوساطهم بداخل مجتمعات متعددة في درجاتها، الأسر، الأقوام، والأمم، المرتبطة كلها على نحو حميمي وروحي، ومثلما قلت ذلك في وحدة التشكيل الروحي". (Edmund Husserl, 2019, P56)

وهذه هي الجماعة الإنسانية الفوق- وطنية (Supranationale)، التي تتجاوز كل الحدود الجغرافية الضيقة الأمم الأوروبية المختلفة، هي التي تحقق فكرة الإنسانية الجديدة أي الروحية الأوروبية الموحدة والمتضامنة فيما بينها إلى أقصى حد، والمتعاونة لتحقيق وجودها المشترك وغاياتها المشتركة. تعمل مع بعض وتتشارك في أسى ما لديها القيم والمعايير والحقائق المشتركة. "يسمى ذلك بعملية نقل تجربة فرد إلى آخر في جمع ممأسس (Communauté instituée) إذ تشمل الثقافة والتاريخية الطبقة الكاملة للإنتاجات الثقافية، التي تمثل الفلسفة نفسها، وهذا النوع الجديد من الثقافة يتضمن نوعا جديدا من الجمع (Communauté)، جمعا فو- وطني (Supranationale)، مجتمع مفتوح على كل الناس من دون تمييز، يقوّم إنسانية جديدة... هي في الواقع الإنسانية الحقيقية، بما أن وحدتها تتجلى باسم الصورة اللانهائية للعلم". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 390)

ومن المؤكد أن الفلاسفة سيكون لهم الدور الحاسم في بناء الإنسانية الأوروبية الجديدة، لأنه سيكونون قادتها وزعمائها، لا السياسيين، ولكن الروحيين، لأنهم هم القادرون على الارتقاء إلى العقل المطلق وإدراك حقائقه وغاياته السامية، ثم تحقيقها في الواقع. "ذلك ما أدى إلى اعتبار معرفة الفرد الإنساني في حياته بما هو عضو في جميع فلسفي يؤدي وظيفة في وحدته الجمعية وحياته المجتمعية، لا تكون فيها فكرة العقل فكرة فردية، وإنما فكرة اجتماعية ينبغي بواسطتها الحكم على رأي معياري بقدر الإنسانية الحية في أمكنة اجتماعية كالصور التاريخية والتراثية للحياة الاجتماعية كالدولة". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 389)

6. الخلاصة:

لا تظهر عبقرية هوسرل في تحليله العميق والمميز للأزمة الأوروبية الخطيرة في كل جوانبها، لكنها تظهر أكثر في الحلول التي قدمها لهذه الأزمة، حيث كان مقتنعا اقتناعا لا يتزعزع بأن الحل لن تقدمه إلا الفلسفة، لكن الفلسفة بمعناها القديم الذي تأسس مع اليونان، أي الفلسفة بوصفها علما دقيقا وكليا ومطلقا، والتي ستقدم لكل العلوم أسسها الأولى الصحيحة. فربط بين الفلسفة والعلم من جديد، بعد أن عمل معاصرون الوضعيون على قطع كل صلة للعلم بالفلسفة، من أجل تحقيق استقلاله التام عنها، فقد كان هذا هو الشرط الأول لقيام العلم وتطوره حقا في نظرهم.

بالعكس من ذلك منح هوسرل الفلسفة مكانة مرموقة جدا في الحضارة الأوروبية، لأن أوروبا نفسها نشأت مع الفلسفة، وستتطور في الاتجاه الصحيح عندما تستعيد فكرة الفلسفة الأصيلة، التي ستظل توجه سيرها إلى ما لا نهاية له. "يرتبط إذن كل مصير أوروبا وحياتها بوضعية كل من العلم والفلسفة، ف «فكرة الفلسفة بما هي علم صارم»، التي تقود الإنسان بناء على مبادئ حياته النظرية والعلمية، هي الفكرة المؤسسة لأوروبا، أي أنها ما يشكل المعنى الذي تتجه إليه الثقافة الأوروبية نحو تحقيقه، والقوة الدافعة التي تحرك التاريخ الأوربي". (مراد قواسمي، 2010، الصفحة 310)

ويظهر لنا بذلك أن الدور الأساسي للفلسفة حسب هوسرل يكمن في أنها ستكون العلاج الفعال للأزمة الأوروبية العميقة. "هذا المفهوم الذي يجب علينا أن نفهم بأنه هو ما يجعل الفلسفة علاجية". (Alexy Lamy- Théberge, 2011, P121)

وهكذا يكون الحل هو بناء عقلانية جديدة على يد فلاسفة واعين بمهامهم التاريخية إزاء مجتمعاتهم، ومسؤولين عن أدائها على أكمل وجه، وهذه العقلانية الفلسفية الجديدة هي الكفيلة ببناء إنسانية أوروبية جديدة عارفة وموحدة، تتطور علميا وفلسفيا مع بعضها بعض على المستوى النظري، وتتجاوز كل صراعاتها في الواقع على المستوى العملي، من خلال التعاون الصادق على بناء أوروبا موحدة وقوية ومتقدمة، تحتضن كل الأمم الأوروبية دون إقصاء لأية واحدة منها، لأنها تثبت مصيرها المشترك. وهذا ما يبين مدى تقديس هوسرل للفلسفة، وتحويله عليها في تجاوز الأزمة الخطيرة التي تعاني منها أوروبا في عصره، حيث كان يملك تصورا جد نبيل عن الفلسفة، فأمن بأنها تملك رسالة خالدة، وهي رسالة حضارية جد خطيرة، إذا ما فهمها الأوروبيون وعادوا إليها فسيخرجون من أزماتهم نهائيا.

الفلسفة هي وحدها التي تعرف كيف ترد الاعتبار للإنسان، والإنسان في مفهومه الحقيقي أي الإنسان العقلاني، الروحي والتاريخي. "يدخل الأنا والتاريخ في هذه العلاقة التبادلية بحيث يتقوم الأنا بالتاريخ كله، ولكن هو الذي يشملها ويتجاوزها في مشروع لا نهائي، ما يؤدي إلى إعادة وصف فكرة الإنسان، إذ لم يعد الإنسان هو تلك التسمية التي تطلق على أنا سيكولوجي وعالمي، وإنما هو ماهية العقل الغائي: وجود ثقافي وتاريخي، بحيث يتطلب فهم الذاتية الترانساندنتالية، بما هي «تاريخية» (Historicité)، تجاوز الإلحاد المنهجي لكتاب «الأفكار» باتجاه نحو تصور جديد للعلاقة ما بين الإنسان الحر والإله، بحيث يتعلق رد الاعتبار لفكرة الإنسان بما هو كائن ثقافي وتاريخي وهنا يبقى هوسرل وفيا للتحديد الميتافيزيقي للإنسان في معناه ك: كائن عقلائي، والسبب يرتبط، في هذه اللحظة، بصورة حميمية بالتاريخية، إذ لم يبق الإنسان تسمية واقعية عالمية أو طبيعية، وإنما هو مضايغ لمشروع غائي

بمهمة لا نهائية، في الواقع، فالأمر يتعلق بإنسان فلسفي، لأن، لأن فكرة الفلسفة، أي مشروع العلم الكلي، هو بالنسبة لهوسرل غاية التاريخ". (قواسمي، 361)

ويتضح بذلك أن الفلسفة هي وحدها القادرة على أن تعيد للإنسان إنسانية، التي سلبتها منه أزمة العلوم الوضعية.

قائمة المصادر والمراجع:

قائمة المصادر:

باللغة العربية:

1)- إدموند هوسرل (2008)، أزمة العلوم الأوروبية والفينومينولوجيا الترنسندنتالية، ترجمة إسماعيل المصدق، مراجعة جورج كتورة، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط1.

باللغة الأجنبية:

1)- Edmund Husserl (2019), *La Crise de l'humanité européenne et la philosophie*, Introduction, commentaire et traduction par Nathalie Derpaz, Paris, Hatier.

2)- Edmond Husserl, (1953), *Méditations Cartésiennes*, Traduit de l'allemand par M^{elle} Gabrielle Peiffer et M. Emmanuel Levinas, Librairie Philosophique J. Vrin, Paris.

3)- Edmund Husserl, (Octobre- Décembre 1957), *Postface à Mes Idées Directrices Pour Une Phénoménologie Pure*, Traduction et notes de L. Kelkel, Dans *Revue de Métaphysique et de Morale*, 62^e Année, N° 4, Paris.

قائمة المراجع:

باللغة العربية:

1)- يوسف بن أحمد، (2008)، الظاهرة والمنهج، فينومينولوجيا هوسرل، مركز النشر الجامعي، تونس.

2)- نادية بونفقة، (2005)، فلسفة إدموند هوسرل، نظرية الرد الفينومينولوجي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

3)- حسن حنفي، (1990)، في الفكر الغربي المعاصر، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، لبنان.

4)- يوسف سليم سلامة، (2007)، الفينومينولوجيا- المنطق عند إدموند هوسرل، دار الفارابي، بيروت

5)- مراد قواسمي، (2009- 2010) قراءة في تصور التاريخ في فينومينولوجيا هوسرل، أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في الفلسفة، جامعة السانبا، وهران، قسم الفلسفة، السنة الجامعية.

2.2.2. باللغة الأجنبية:

1)- Jules Bednaski, (Octobre- Décembre 1957), *La Réduction husserlienne*, Dans *Revue de Métaphysique et de Morale*, 62^e Année, N° 4 (Octobre- Décembre 1957), Paris, Presses Universitaires de France.

- 2)- Daniel Christoff (1966), *Husserl ou le retour aux choses*, France, Editions Seghers.
- 3)- Julien Farges (2015), *Husserl et la guerre: L'irruption critique de l'histoire dans la phénoménologie*, *Revue Transversalité*, Janvier- Mars 2015. N132
- 4)- Geneviève Gendreau-B (2009), *La Crise des Sciences chez Edmund Husserl et Michel Freitag*, Mémoire présenté comme exigence partielle de la Maîtrise en Sociologie, Université du Québec à Montréal.
- 5)- Vincent Gérard (1999), *La Krisis*, Husserl, Paris, Ellipses.
- 6)- Alexy Lamy- Théberge (2011), *Husserl et la crise de la raison, Vers une étude du monde- de- la- vie*, Mémoire présentée à la Faculté des études supérieures de l'Université Laval dans le cadre du programme de maîtrise en philosophie pour l'obtention du grade de Maître ès arts, Quebec.
- 7)- Alfred Weber et Denis Huisman (1957), *Histoire de la Philosophie Européenne, Tableau de la Philosophie Contemporaine*, Paris, Editions Fischbacher, 1957.